
روايات مصرية للجيب
ما وراء الطبيعة
د. أحمد خالد توفيق
3
سلسلة
الأعداد
الخاصة
Looloo
www.dvd4arab.com
الأبجديَّة

المقدمة

هذا هو الكتاب الخاص الثالث من سلسلة (ما وراء الطبيعة) .. لم أتعمد قط أن يكون الإصدار سنويًا ولا نية لى فى ذلك ، إنما هو ما تجود به القريحة من أفكار .. وحتى اللحظة الأخيرة ما زال احتمال ألا يلحق هذا الكتيب بمعرض الكتاب قائمًا .. بالنسبة لهم فى المؤسسة معرض الكتاب قد بدأ فعلاً ، والأمر يشبه من يبتاع ثياب الإحرام ويقصد المطار يوم وقفة (عرفات) ..

ليس هناك من يطالبنى بكم معين من الأعداد الخاصة .. إن التمسك بكم معين هو الطريقة المثلى كى يخرج الخبز من الفرن نيئًا أقرب للعجين ، ويخرج اللحم غير تام النضج ، وتخرج القصص مسلوقة غير مكتملة .. ولهذا السبب قد تصدر ثلاثة كتيبات خاصة فى عامٍ واحد ، أو يصدر كتيب كل ثلاثة أعوام .. سيّان ..

المهم أن يروق لكم ، وأن نقضى وقتًا مسليًا معًا .. ربما تبقى بعض الألياف فى المرشح كما تبقى بعض ألياف البرتقال بعد تصفية العصير .. لا بأس .. لعلها تكون ذات نفع يومًا ما فى لحظة بعينها ..

كان القرار الذى اتخذه المؤلف حتى أسابيع مضت أن يكون الكتاب الخاص هو أول أعداد سلسلة (فانتازيا) الخاصة ، ثم

شعر بأن فكرة هذا الكتاب تلحّ عليه ، خاصة وقد كان ينوى أن يقدم (الأبجدية) فى الكتيب السابق ثم عدل عنها ..

كان كتاب (36) أقرب إلى طريقة السرد التقليدية ، فقط أنت تستطيع أن تُنهى القصة بطريقتين .. وأعتقد أن كثيرين قد أحبوه خاصة أولئك الذين أصابهم الجنون من كهوف (دراجوسان) شديدة التعقيد ، وربما لم يخرجوا منها حتى هذه اللحظة .

لكننا اليوم نجرب خطوة أخرى نحو طرق السرد التقليدية .. يمكنك أن تقرأ هذا الكتاب كمجموعة من القصص القصيرة وينتهى الأمر ، أو يمكنك أن تتمسك بحقك فى رؤية شىء جديد ..

الأبجدية بدأت كلعنة ثم تحولت إلى لعبة .. فقط عليك أن تنظر لساعتك كى تعرف ما ينبغى عليك مواجهته ..

وفى النهاية ربما ينجح (رفعت) فى الإفلات أو لا ينجح .. المهم أن تقرأ وأن تعيش معه فى هذا الكابوس ..

الأبجدية ..

المصيدة التى نسج خيوطها (لوكيريو) باحتراف .. من هو ؟ وماذا فعل بالضبط .. أعتقد أن عليك أن تبدأ القراءة بدلاً من التساؤلات التى لا تنتهى ..

تمهيد

قبل هذه القصة لم أكن أعرف (لوكيريو) ..

كنت سعيد الحظ بحق ، ولم أدر كم أن حياتى باسمة مبهجة من دونه حتى ظهر ..

كنت - أذكر - فى (نيروبى) مدعوًا إلى أحد تلك المؤتمرات التى لا تنتهى .. لها فقط مزية واحدة هى أنها تطلعك على الجديد فى كل مكان من العالم .. لها مزية واحدة أخرى هى أنها تكسر روتين حياتك .. وهناك مزية واحدة أخرى هى أنها تريك العالم ، وهو ما لا تقدر ملاليمك على أن تحققه .. هناك مزية واحدة أخرى هى أنك تطّلع على ثقافات غريبة بعض الشىء ..

هل ذكرت أكثر من مزية ؟ غريب هذا .. طيلة حياتى أعتقد أن للمؤتمرات مزية واحدة فقط لا أكثر ولا أقل ..

كان هناك برنامج لا بأس به يحاول أن يرينا (كينيا) بسرعة كأن هذا ممكن .. وكانت الجولات تبدأ بعد العصر مع انتهاء الجلسات كما كان هناك يوم مخصص للجولات الحرة ..

على كل حال ليس هذا موضوعنا وإلا لسودت بضع صفحات فى وصف هذا البلد الجميل ..

المهم أننى حضرت أعمال هذا المؤتمر ، وكانت الورقة العلمية التى دعيت بسببها قد حدد لها اليوم الثالث من المؤتمر .. هكذا مرتديًا بذلتى الكحلية التى تجعلنى فاتنًا صعدت إلى المنصة ، وقدمت محاضرتى وسرنى أننى كنت مملاً ، وأن عددًا لا بأس به من العلماء الكوريين نام فعليًا أثناء كلامى .. من الجميل أن تثير ملل من أثار مللك من قبل .. الانتقام طبق يجب أن يقدم باردًا كما يقول الغربيون ..

كنت مستعدًا للكلام حتى تقوم الساعة لولا أن قرع مدير الجلسة على الميكروفون بأنامله ، وهى حركة مؤتمرات رشيقة تعنى أننى تجاوزت الوقت .. هكذا نزلت من المنصة مستعدًا للأسئلة .. لا أسئلة .. لابد أن تكون مفيقًا كى تملك تساؤلات عن موضوع ما ، أما فى حالة النعاس اللذيذة هذه يمكنك أن ترضى عن نفسك وعن الكون ، وتتصور أنك تعرف إجابة كل شىء ..

خرجت من القاعة لأشرب بعض القهوة كى أتحمّل الساعات القادمة ..

قابلت جوار آلة القهوة الأستاذ الأفريقى (ميشيل دوجوبى) ومعه عالم فرنسى مرموق يدعى (شارل لافاييت) وكلاهما يحمل كوبًا ورقيًا يتصاعد منه الدخان ..

قدما لى التهانى على ورقتى العلمية المثيرة .. إن موضوع (الكرايوجلوبيولينيميا) يثير شغفهما .. طبعًا لم تكن ورقتى العلمية تشير إلى (الكرايوجلوبيولينيميا) بحرف واحد .. واضح أنهما خلطا بينى وبين أى محاضر آخر أصلع الرأس نحيل ..

شكرتهما على كل حال ورحنا نتكلم عن كل شىء .. المشكلة هى أننى لا أفقه شيئًا فى الفرنسية أكثر من مستوى الصف الثالث الثانوى ، وهما لا يعرفان عن الإنجليزية إلا بعض الأغانى .. لكن التفاهم كان ممتازًا برغم هذا ..

قال لى الأستاذ الفرنسى :

ـ « هل ترغب فى أن تصحبنا فى جولة غد ؟ يقولون إننا سنرى بحيرة (رودلف) فى الشمال الغربى .. »

هذا هو ما فهمته من فرنسيته على كل حال .. فلربما كان يخبرنى أن طعم القهوة سيئ لا أكثر .. تساءلت فى غباء :

ـ « هل هذا رائع ؟ »

أعتقد أنهما فهما ما قلت .. أدعو الله ألا يكونا قد فهما أننى مصاب بمغص .. قال الأفريقى :

ـ « بحيـرة (رودلف) هى التى يطلقـون عليهـا اليـوم اسـم (توركانا) .. هناك توجد قبيلة (توركانـا) التـى برهنت أبحـاث الحمض النووى DNAعلى أنها أقدم قبيلة بدائية فى العالم .. »

قال الفرنسى :

ـ « بمعنى آخر .. من لم ير (توركانـا) لـم يـر قبـائل بدائيـة بعد .. »

بدا لى الأمر مثيرًا .. المهم ألا يضعونا فى قدر ويلتهمونـا .. ستكون هذه أغرب جولة سياحية رأيتها فى حياتى ..

(كينيـا) حيـث (كليمنجـارو) و(الماسـاى) و(توركانـا) والمحميات الشهيرة بلد مثير بالتأكيد .. أعتقد أننـى سـأقبل هذا العرض ..

وكما يقولون فى القصص الفكتورية العتيقة : ليتنى لم أفعل ..

* * *

كنا نركب طائرة هليوكوبتر تحلق فوق قرى التوركانا .. ألبس كالمستكشفين قبعة من القش وألبس سروالاً قصيرًا تطل منـه ساقاى النحيلتان .. هكذا أجبرونى كى لا أبدو سخيفًا .. أى أننـى الآن لا أبدو كذلك ..

من بعيد نرى البحيرة الشهيرة ..البحيرة التى تعج بالتماسيح والتى حاول النرويجيون أن ينشئوا فيها مشروعًا لصيد الأسماك وتعليبها ، على أن يقدم أفراد القبيلة الأيدى العاملـة .. هذا هو مشروع (نوارد) الذى أسفر عن كارثة وفشل ذريع .. لابد أنكم قرأتم هذه التفاصيل فى قصة (سـافارى) التـى تحمـل اسـم (توركانا) .. لن أكرر ما قيل هناك منعًا للملل ..

مررنـا بقـرى غريبـة مثـل (لوكيتشـوكيو) و(لوكيتشـار) و(إليا) .. ثم بدأت الطائرة تهبط فى القرية الأولى ..

إن قبيلة (توركانا) التـى يبلـغ عددهـا 350 ألفًا جـاءت مـن السودان أصلاً.. ومـا زال بعض أفرادهـا موجودين فـى جنـوب السودان وشرق (أوغنـدا) وشمـال (كينيـا) حيث نحن الآن .. هذه مجموعة من القبائل يطلق عليها اسم (النيلية) لأنها جـاءت من حول النيل أصلاً ..

لهذا يمكن فهم سبب أن اللغة التـى يتكلمـون بهـا تدعـى اللغـة النيلية Nilotic ..

كل رجل من الأهـالى عـار تقريبًـا مـا عدا قطعًـا مـن صـوف الأغنام وجلود البقر يضعها فوق العورات .. ثمة عظمـة تختـرق

شفته السفلى ليبدو أجمل ، وقطعة من السلك يغرسها غرسـاً فى لحم فروة الرأس بهدف إخافة القمل ، كـأن القمل يمكن أن يجد الجرأة للمشى على هذا الرأس .. الطريف كذلك أن قبيلة توركانـا هى أهم تجمع لداء الحويصلات المائية Hydatid cyst فى العالم .. القبيلة كلها مصابة بهذا المرض . فهذه البطون المنتفخة لا تدل على كثرة الطعام بل على المرض ..

قال لى الأستاذ الأفريقى (ميشيل دوجوبى) الذى لم تكن هذه مرته الأولى هنا :

ـ « إنهم شديدو الحساسية ولا يميلون إلى الأجانب فحاول ألا تطيل النظر .. »

فيما بعد هذا بأعوام جاء عالم أنثروبولوجى مهم ولد فى كينيا ويدعى (ريتشارد ليكى Leakey) ، أجرى عام 1984 حفريات هامة على ضفاف بحيرة (توركانا) فوجد هيكلاً عظميًا لصبى مراهق .. هذا الهيكل تبين بالفحص الكربونـى أن عمره يتجاوز مليونًا ونصف من الأعوام ، وقد اشتهر فى أوساط علم الأجنـاس باسم (صبى توركانـا) .. الرجل حاليًا مديـر معهـد دراسـات التاريخ الطبيعى فى كينيا ..

تفرقنا فى القرية .. الحقيقة أننى زهدتها بعد عشر دقائق .. فلتر قرية واحدة تشعر بعدها بأنك رأيت كل شىء ..

كانت هناك أحراش تحيط بالقرية من كل الجهات ..

حاولت أن ألتقط بعض الصور للأهالى لكنهم كـانوا عدوانيين جدًا .. كلما وجهت العدسـة نحو أحدهم زمجر فى ضيق وأدار وجهه ..

قال لى الطبيب الأفريقى الذى يجيد لغتهم :

ـ « هم يعتقدون أن الكاميرا تخطف الروح .. لا تحاول استفزازهم بهذا الصدد .. »

هكذا دسست الكاميرا فى جيبى آسفًا .. سيكون على أن أحتفظ بكل شىء فى ذاكرتى ، وعندما أعود لمصر أحكى لهم عـن التوركانا التى .. التى .. لا شىء .. من دون صـور سـيكون الشرح عسيرًا ..

كانت الضوضاء شديدة وشعرت بملل حقيقى .. لذا قررت أن أجوب المنطقة على قدمى ..

الأحراش .. اتوغل فيها لكن بحذر حريصًا علـى أن أبقـى القريـة فى مجال بصرى إذا استدرت للخلف .. أعـرف ديـدن الحمقى فى التجوال حتى يضلوا الطريق . لكنى أذكى من هذا أو

أجبن .. لا أعتقد أن نمرًا سيهاجمنى هنا لأن صخب هؤلاء القوم يصم الآذان ، دعك من أننا فى الثانية عشرة ظهرًا .. فى كل صور المجلات المصورة التى رأيتها كان النمر يجر ضحيته الدامية فى ضوء القمر ..

مشيت بين الأحراش أكثر ..

فجأة توقفت ..

هناك وسط مساحة خالية من الأشجار كانت مجموعة من الأعواد الرأسية المغروسة فى الأرض ترسم دائرة .. وفى وسط الدائرة كان صنم أفريقى قبيح .. قبيح بمقاييس الجمال المجرد ، لكنه تحفة فنية حقيقية لو نظرنا بخبرة الناقد الفنى ..

صنم بارتفاع قامتى .. له شفتان غليظتان متدليتان وفى كل أذن قرط.. يمط شفتيه فى اشمئزاز .. قرد قبيح جدًا .. له ذراع واحدة يرفعها إلى خده .. لا أعرف إن كان هذا (طوطمهم) أم مجرد صنم وثنى .. لقد جعل فرويد وفريزر القصة معقدة بشكل ما .. بالنسبة لنا هؤلاء وثنيون يعبدون حجرًا .. بالنسبة لفريزر وفرويد هناك تراث هائل من خبرات التابو وراء هذا الشىء الكريه .. إنه بالنسبة لهم يمثل طفولة البشرية ومولد العصاب .. إلخ .. لقد قرأت كتاب الأخير (الطوطم والتابو) فلم أفهم إلا أننى لم أخلق لأكون محللاً نفسيًا ..

دنوت من الصنم أكثر.. هنا خطرت لى فكرة طفولية خبيثة ..

نظرت حولى .. لا أحد يرانى .. هذا الشىء لا ينفع ولا يضر وهو رمز لحماقة البشر وغبائهم.. لا شك أنه مما يسعد أى متديّن أن يضربه على قفاه أو يحطمه .. لكنى لن أفعل ذلك بالضبط ..

فقط نزعت قبعتى ؛ فوضعتها فوق رأسه ثم أخرجت لفافة تبغ دسستها بين شفتيه الغليظتين .. نزعت ساعة معصمى وأحطت بها معصمه النحيل ...

بدا منظره مضحكًا جدًا كقرد يدخن .. وهذا القرد رجل أعمال كذلك ..

وجدت صخرة عالية فوضعت عليها الكاميرا وقمت بتشغيل توقيت الالتقاط التلقائى ، ثم جريت لأقف جواره .. هكذا انطلق غالق الكاميرا ليسجل هذه الصورة الطريفة لنا معًا ..

كليك !

هنا انفتح باب الجحيم ..

* * *

البداية

فى اللحظة التالية رأيت ذلك الوطنى الأسود النحيل الذى يغطى رأسه بالريش ويحيط عنقه بالقواقع يخرج لى من الأحراش ...

كان غاضبًا غضبة مخيفة .. عيناه توشكان على مغادرة محجريهما .. يرتجف غيظًا .. يقول كلامًا كثيرًا ، وهو يشير لى بإصبعين مفتوحين مشدودين كأنهما مخلبان ..

استعدت قبعتى والكاميرا بسرعة وتراجعت ..

لا داعى للتفسير .. هذا المخبول هو ساحر القبيلة ، وقد رآنى أهين صنمهم بطريقة مفزعة ..

من الغريب أنه لم يهاجمنى .. وفهمت أنه على الأرجح يخشى ذلك .. لقد صرت من التابوو أى أن لمسى صار محرمًا .. (تابوو) لفظة بولينيزية معناها (المحرم) ..

تراجعت بظهرى وأنا أنظر للخلف ..

رأيته مصرًا على المشى ورائى وهو لا يكف عن الكلام .. وطيلة الوقت كان إصبعاه مفرودين نحوى وعيناه تجحظان .. برغم هذا احتفظ بالمسافة بيننا .. لم يقصرها فيهجم ولم يطلها فيتركنى وشأنى ..

عندما خرجت من الأحراش إلى القرية كان الوضع قد تغير تمامًا ..

لقد وقف التوركانا حولنا فى دائرة والغضب يطل من عيونهم .. يسبون ويلوحون بأذرعهم لكنهم يخشون الاقتراب منى .. شعور مفزع أن تدرك أنك هدف هياج الجموع .. كان الله فى عون الطاغية الذى يثور شعبه عليه ..

ودنا منى الطبيب الفرنسى ليسألنى فى لهفة :

ـ « ماذا فعلت ؟ »

قلت وأنا أنظر حولى :

ـ « دنست صنمهم على سبيل المرح .. »

هنا جاء الطبيب الأفريقى (دوجوبى) وقال فى رعب :

ـ « أنت ارتكبت حماقة لا توصف .. »

ثم راح يكلم الساحر بلغته .. وهذا الأخير يكرر ذات المقاطع من الكلام ..

قال لى الأفريقى :

ـ « هو (لوكيريو) .. كل ساحر عند (التوركانا) اسمه (لوكيريو) .. يعتقدون أنه يمثل الآلهة... هو يوحد القبيلة ويحرم

السرقة داخلها ، لكنه يسمح لهم بسرقة المواشى من القبائل الأخرى .. »

ثم قال وهو يشير إلى الطائرة :

ـ « سوف نختصر هذه الزيارة حرصًا على سلامتك .. هيا بنا ! »

وهرعنا جميعًا إلى الطائرة .. الغربيون يصنعون بأجسادهم حاجزًا حولى ، بينما الأهالى يموجون ويثورون ..

المحرك يدور والطائرة ترتفع ، بينما ذلك الأخ (لوكيريو) يقف على الأرض فى ثبات مصرًا على أن يصوب نحوى مخلبيه الحادين .. لو أن النظرات تقتل لكنت نسيًا منسيًا منذ زمن ..

الطائرة ترتفع وهو يصغر .. القرية كلها تصغر ..

فقط لتتحول من السماء إلى عش من النمل الهائج الغاضب ..

* * *

كان العشاء مرحًا فى الفندق .. انفجر الجميع ضاحكين بينما الطبيب الفرنسى يحكى لهم ما قمت به من حماقة .. ضحك البعض حتى شرقوا بما فى فمهم وسعلوا ..

قال لى :

ـ « من حسن حظك أن قوانين التابو تعمل هنا .. (رافائيل متى) أو (كونجو ماسا) الذى كان خبيرًا فى إفريقيا ارتكب خطأ مماثلاً .. دخل إلى معقل قبيلة فى عيد دينى من أعيادها حيث يحرم على الغرباء الاقتراب .. هكذا مزقوه لساعته .. لولا التابوو لعدنا بأشلائك إلى الفندق .. »

كنت مهزوزًا بفعل تجربة الصباح .. لقد كانت غلطة فادحة بحق ، لكن كيف لى أن أعرف أن ذلك الشيطان سيرانى ؟

نظرت بطرف عينى إلى ذلك الطبيب الأفريقى (دوجوبى) فلاحظت أنه ساهم لا يشاركنا المرح .. فقط التقت عينانا فقال لى فى كياسة :

ـ « أنت لم تترك عندهم أى أثر منك ؟ »

ـ « لن نعود لهذا السخف .. »

ـ « فقط أجب عن سؤالى .. »

تذكرت ما قمت به لحظة التصوير .. ثم تحسست معصمى .. الساعة ليست هناك .. ما زالت حول ساعد ذلك الصنم .. كانت ساعة ثمينة وإنها لخسارة فادحة ، لكنى بالطبع لن أعود لأطلبها منهم فى كياسة ..

ـ « ساعتى .. »

اتسعت عيناه فى خطورة ثم راح يلتهم طعامه ليتشاغل عنى ..

قلت له فى غيظ :

ـ « لا تحدثنى عن السحر بالاقتران من فضلك .. »

ـ « لكنه هو ما أتكلم عنه فعلاً .. »

أرجو أن أكون قد أسأت الفهم .. ربما هو لا يتكلم عن السحر بالاقتران ، بل يتحدث عن أن العشاء لذيذ .. إن تلك اللغة الفرنسية تثير جنونى .. لست غبيًا بشكل خاص لكن عقلى ظل كالحصن المستعصى على مفرداتها وتصاريف أفعالها ..

قال لى وهو ينهض :

ـ « أعتقد أننا يمكن أن نتكلم فى الشرفة بشكل أفضل .. »

* * *

حتى وأنت فى مدينة متحضرة مثل (نيروبى) فإن الليل الأفريقى لا يمكن السيطرة عليه .. هذه الرائحة القادمة من القرى النائية .. من الأسود المتوارية تحت الأشجار تترصد عكس الريح بقطعان الظباء .. من التماسيح المتصارعة فى الأنهار .. من الأعشاب الطبية التى يحرقها السحرة .. من الأشجار العملاقة فى المحميات ..

هذه الرائحة تتسرب إلى رئتيك فترتجف شاعرًا بأنك ضئيل حقًا ..

قال الدكتور (دوجوبى) وهو يملأ رئتيه بالهواء :

ـ « نحن لا نؤمن بقدرات خارقة لدى هؤلاء السحرة ، لكننا كذلك لا نتجاهلهم .. إن بعض الـ (لوكيريو) يملكون قوى لا شك فيها .. والمهم هنا أنك استفززتهم أكثر مما يستطيعون التحمل .. ما كان يجب أن تقوم بهذه الدعابة .. لاحظ أننى لا أتكلم عن أية قدرات لدى ذلك الصنم القبيح ، لكنى أتكلم عن قدرات لدى الساحر .. هل يستطيع فعلاً عمل ما يزعم أنه قادر عليه ؟ »

نظرت له فى الظلام وتساءلت :

ـ « ما الذى يزعمه ؟ »

ـ « قال إنك حاولت خطف صنمهم وأهنته بالكاميرا .. لذا سيقوم هو بخطف روحك .. يقول إنك ستتعذب بعدد ساعات اليوم فى دهاليز الكوابيس ومع الأبجدية .. وأنك ستشتهى الموت فلا تناله .. »

ـ « هذا فحسب ؟ ظريف جدًا .. »

ـ « لاحظ أنك تركت ساعتك هناك .. فهل يعنى هذا شيئًا ما ؟ »

وارتجفت للفكرة ..

حقًا ليس من المستحب أن أترك شيئًا منى لدى هذا القرد الوثنى الغاضب .. ربما هو تراث (الأثر) الذى تلقيناه من جيل الأمهات والخالات .. لماذا كانت أمى تأمرنى بالتخلص من بقايا قص أظفارى وشعرى فى الحمام ؟

فى الأسبوع التالى انتهى المؤتمر وعدت إلى مصر ..

لم أقم بتحميض الفيلم لأننى شعرت بانقباض بالغ منه .. تبدو فكرة سخيفة ، لكنى بالفعل تشاءمت من أن أحتفظ بصورة لهذا الصنم ..

هكذا عادت حياتى إلى انتظامها ولم يعد من قصة ذلك الـ (لوكيريو) إلا ذكرى مبهمة تزورنى فى بعض الكوابيس .. مهما بلغ إيمانك بالعلم فأنت لا تستطيع إلا أن ترتجف إذا رأيت ساحرًا غاضبًا فى كوابيسك .. خاصة إذا كان بشع الخلقة تساقطت أكثر أسنانه ..

كان يتكلم بلغته .. ذات الكلمات التى سمعتها لكنى الآن أعرف ترجمتها .. وكنت أصحو غارقًا فى العرق وأذهب إلى الحمام ثم أشعر بالنشوة الحقيقية لكونى أحلم .. ليس شىء من هذا كله حقيقيًا .. هذا رائع ..

هكذا مر 24 يومًا على ذلك التاريخ ..

وفى ذلك اليوم صحوت من نومى عند الظهيرة .. لم يكن لدى عمل فى ذلك اليوم .. أحيانًا أشعر بضيق لأننى لا أملك عيادة

خاصة ، وأحيانًا أغبط نفسى على أن الوقت ملكى .. لو كنت أملك عيادة لجريت كالمجنون لأستعد لفترة الظهيرة ، لكنى أشعر باسترخاء تام .. سأعد غدائى على مهل ، ثم ربما أعود للنوم بعده .. فى المساء ربما أزور شخصًا ما أو أجلس وحيدًا أطالع ..

فتحت باب المطبخ فقابلت مذءوبًا !

نعم .. لا يوجد خطأ مطبعى هنالك .. Sic أو (كذا) كما يقولون فى النص اللاتينى .. هناك مذءوب فى المطبخ ! سأعفيك من التفاصيل تاركًا إياها لخيالك الخصب .. مذءوب عادى ضخم فى المطبخ .. ألم تمر بهذا الموقف من قبل ؟

أغلقت الباب وأنا أرتجف قبل أن ينقض هذا محاولاً الخروج .. راح يضرب الباب عدة مرات والباب يرتج لكن باب مطبخى من الطراز القوى ..

مذءوب فى الثانية عشرة ظهرًا ؟ لم أسمع قط عن مذءوب صباحى .. دعك من أن القمر غير مكتمل ولن يكتمل قبل أسبوع .. هذا مذءوب (مضروب) تمامًا إذا سمحتم لى بهذا التعبير ..

أنا أهذى .. هذا واضح .. من الصعب أن يعرف المجنون أنه جن ، لكنى من هذا الطراز .. هكذا استرحت لهذا الخاطر خاصة وأن صوت ضرب الباب توقف .. فتحت الباب فلم أر شيئًا ..

فى الواحدة بعد الظهر دخل من النافذة رجل عث Mothman وهو كائن شنيع أقرب إلى وطواط عملاق بلا رأس .. فقط له عينان حمراوان على جانبى صدره .. وقد تواريت منه تحت الفراش ..

رجل عث فى مصر ؟ معلوماتى أنه لم يظهر إلا فى (وست فرجينيا) بين عامى 1966 و1967 .. ويعتقد كثير من العلماء أنها خرافة من الخرافات (الفورتية) التى لا تنتهى ..

على كل حال حلّق فى الشقة قليلاً ثم توارى ..

فى الثانية بعد الظهر رأيت فى الحمام (نكرومانسر) حقيقيًا يمارس نشاطه الكريه .. هناك جثة ممزقة فى مغطس الحمام ، بينما ذلك الشيطان الذى لم أتبين وجهه يستنطق الجثة لمعرفة ما تعرفه ..

أغلقت باب الحمام وقد اطمأننت إلى أننى جننت ..

اتصلت بالدكتور (محمد إبراهيم) مختص الأمراض النفسية فأخبرتنى ممرضة عيادته أنه فى فرنسا .. شىء يثير الحنق .. ما الذى سيجده فى فرنسا ويستحق أن يتركنى من أجله ؟ كنت بحاجة إلى صدمات كهربية وجرعات من الكلوربرومازين والليثيوم ، وربما ذلك المغطس البارد الذى يلقون فيه المجانين .. كان هذا سيشعرنى بتحسن لا شك فيه ..

فى الثالثة بعد الظهر هاجمنى رجل قرد عملاق يذكرك بمنظر (الياتى) أو رجل الثلوج .. اضطررت للفرار منه إلى الدرج .. كان ضخمًا إلى درجة أن رأسه راح يسقط ملاطًا من السقف .. لكنى برغم هذا لاحظت أن له ملامح آسيوية معينة .. من جديد أعفيك من التفاصيل .. كل إنسان يستطيع أن يتخيل منظر الياتى وهو يهاجمه فى صالة بيته ..

* * *

بعد نصف ساعة جلست فى مقهى شعبى ، وسط الزحام والبلطجية الذين يتبادلون السباب ويبصقون .. هنا أنا فى أمان نوعًا .. حتى (خريولسن) لا يجسر على دخول هذا الوكر .. أريد بعض الوقت كى أفكر .. لا شك فى أن ارتطام أحجار الدومينو ينعش الأفكار .. دعك من الـ (هعععععععع) طبعًا ..

الحل الأول السهل : هو أننى جننت ..

الحل الثانى يقول : إن هذه بالضبط هى لعنة الـ (لوكيريو) .. لقد مر 24 يومًا منذ كنت هناك فماذا يعنى هذا ؟

« يقول إنك ستتعذب بعدد ساعات اليوم في دهاليز الكوابيس ومع الأبجدية ، وأنك ستشتهي الموت فلا تناله .. »

هنا فقط تذكرت وتوترت ..

لقد حدث شيء في الثانية عشرة والواحدة بعد الظهر والثانيـة والثالثة ..

فعلاً كنت أتعذب بعدد ساعات اليوم .. لكن ما معنى (مع الأبجدية) ..

لقد هاجمني مذعوب .. ثم رجل عث .. ثم رأيت نكرومانسر ثم رجل ثلوج ..

هل يعني هذا أي شيء ؟

م .. ر .. ن .. ر ..

أمسكت بقلم وورقة ورحت اكتب الأسماء .. ميم .. ثم نون .. ليس هناك ذات الترتيب في العربيـة والإنجليزيـة .. لكن .. من قال إن هذا الساحر استخدم العربية ؟

وما علاقة هذا بساعات اليوم ؟

جاءت القهوة فلم أعرف أنها جاءت لأنني كنت منهمكاً بحق .. وبصوت عـال رحت أردد حروف الأبجدية العربية والإنجليزية كـأنني في روضة أطفال حتى راح الجالسون ينظرون لي ويتصعَّبون ..

كتبت الحروف اللاتينية في جدول حسب ترتيبها .. فكانت النتيجـة كما يلي :

A	B	C	D	E	F	G
1	2	3	4	5	6	7
H	I	J	K	L	M	N
8	9	10	11	12	13	14
O	P	Q	R	S	T	U
15	16	17	18	19	20	21
V	W	X	Y	Z		
22	23	24	25	26		

يمكن القول إنني هوجمت بوساطة الكائنات التالية :

Werewolf

Mothman

Necromancer

Yatti

من الغريب أن رقم الحرف يتطابق مع الساعة فى حـالتى الرجل العث والنكرومانسر .. الواحدة ظهرًا هى فى الحقيقـة الساعة 13 .. والثانية هى الساعة 14 .. إذن ؟

ما هاجمنى الساعة 15 يجب أن يبدأ اسمه بحرف O لـو كنت على حق .. لكن كيف .. هنا تذكرت الملامـح الآسيوية .. هنـاك أكثر من رجل ثلوج أو (رجل ـ قرد) فـى العـالم .. يمكننـى أن أذكر دستة مـن هذه الرنيسيات الغامضـة التـى يخشـاها الأهـالى ويراها المستكشفون من بعيد ، فلا يلتقطون لها صورة واضحـة أبدًا .. منها الساسكواش والياتى و.. وأورانـج جـادانج Orang Gadang ..!!.. اسمه يبدأ بحرف O لو كنتم قد لاحظتم ..

إننى على حق .. بالتأكيد على حق ..

إذن لابد أن يكون ما هاجمنى الساعة 12 يبدأ اسمه بحرف L .. هذه المرة لم أجهد تفكيرى كثيرًا لأن المذءوب هـو اللايكـانثروب Lycanthrope فى الثقافات اللاتينية .. الكلمة التى استخرج منها العرب لفظة (القُطرُب) ..

ورشفت رشفة سخية من القهوة ..

اتضح الأمر وإننى لأحب الأمور المنطقية .. هذا يضفى على الكون لمسة (غائية) محببة ..

الأمر إذن كما يلى :

هذه اللعنة التى حلت بـى سلطت علـى كل مسوخ وشياطين العالم فيما يبدو .. لكن طريقة العقاب مرتبطة بالساعة ، والسبب أننى تركت ساعتى لدى هذا الأخ (لوكيريو) ..

فى كل ساعة من اليوم أواجه خطرًا مرعبًـا .. والحـرف الأول من اسم هذا الوحش يتطابق فى ترتيبه الأبجدى مع الساعة ..

يمكن القول بلا خطأ كبير أننى فى الساعة الرابعـة ـ أى السـاعة السادسة عشرة ـ سأواجه خطرًا يبدأ بحرف P .. ترى ما هو .. لا أجد فى ذهنى أى مسخ يبدأ بحرف P فى هذه اللحظة ..

يجب أن أجد موسوعة المسوخ التى أحتفظ بها فى بيتـى وأدرس الحروف بعناية .. لا أذكر إن كنت استعملتها لتسند رجل المكتـب المكسورة ، أم أننى أرفع بها الفراش لأمنـع الارتجـاع الحمضـى ليلاً .. الآن صارت مهمة جدًا ..

* * *

والآن أيها القارئ العزيز يمكننا أن نبدأ ..

انظر فى ساعتك .. لا تعبأ بالكسور طبعًا .. وانظر للجدول واختر من الأبجدية الحرف الذى سيكون عليك مواجهتـه معى، ثم انتقل للفصل الذى يحمل اسم هذا الحرف .. لن أستعمل أرقام الصفحات منعًا لحدوث اختلافات أثناء الطباعة ..

طبعًا يمكنك أن تقرأ الكتيب كأى كتيب آخر من بدايته لنهايتـه بدلاً من هذه الألعاب البهلوانية، لكنى أفترض أنك تبحث عن شىء مختلف وأنك تتمتع مثل الأخ (لوكيريو) بـالميل إلى المـرح .. أفضل أن تجرب على مدى ساعات اليوم وفى عدة أيام، فبهـذه الطريقة لا تعرف أبدًا ما ينتظرك مع الأبجدية ..

الأبجدية ..

المصيدة التى نسج خيوطها (لوكيريو) باحتراف .. هل أنجـو منها ؟ أعتقد أن عليك أن تبدأ القراءة بدلاً من التساؤلات التى لا تنتهى ..

لقد بدأ الأخ (لوكيريو) المرح، فلن تنقذنا منه إلا معجزة ..

* * *

A

الواحدة صباحًا ..

انتظرت كثيرًا جدًا أن يحدث شىء .. أى شىء ..

أقف فى شقتى بكامل ثيابى أنتظر ..

أنتظر (أبراكساس) ... (عزازيل Azazeel) .. (أبيجـور) .. وماذا عن العزيف Azef وأزيموديوس ؟

كلها مسوخ وشياطين كارثية ..

لكن شيئًا لم يحدث ..

من الواضح أننى مخطئ وأن النظرية كلها مجرد وهم ..

أم أنه ينتظر ..

B

الثانية صباحًا ..

أنا فى مكان من أيرلندا ..

لا أذكر هـذا المكان .. لست ذا خبرة كبيرة بأيرلندا على كل حال ، لكننى أعرف كل شىء عن أسكتلندا كما تعرفون ..

فقط أنا مدثر بالثياب كالدب ، وعلى رأسى قلنسوة صوفية كأننا فى سيبيريا .. السبب واضح هو أن الجليد فى كل مكان .. هناك بيوت خشبية بسيطة لكنها عصرية .. وهناك نيران فى الداخل .. هذه إذن قرية أيرلندية صغيرة ..

تجهت إلى باب من الأبواب وقرعته .. لا أحب زيارة من لا يرغب فى قدومى .. بالأحرى لا أحب زيارة أحد على الإطلاق ، لكن للضرورة أحكامها .. أنا لا أشعر بقدمى من البرد واحتمال قضمة الصقيع وارد .. لا أريد فقدان المزيد من الأصابع ..

أدق الباب عدة مرات فلا يرد أحد .. فقط أسمع صوتًا من الداخل .. هناك من يتكلم .. لكن لا أحد يفتح لى ..

جربت بابًا ثانيًا فثالثًا .. لا جدوى ..

القصة إذن من الطراز الشائع إياه .. الفلاحون حول النار لا يفتحون أبوابهم فى هذه الليلة بالذات لأن الشياطين تغادر معاقلها أو الموتى يخرجون من قبورهم .. ربما المذءوب يجول حرًا .. أى شىء ..

لا أعرف بالضبط .. المهم أنهم لن يفتحوا .. وهذه أسوأ ليلة ممكنة كى أكون هنا .. لا أخاف المسوخ .. أخاف التجمد ..

حرف B .. تر ما الخطر الذى يحمل هذا الحرف .. (برد) ؟ فقط لو كان ذلك الأخ (لوكيريو) ينتقل بين العربية واللاتينية بحرية ..

فجأة سمعت صوت العويل ..

صوت عويل مخيف كأنه عواء ذئب أو صراخ غراب .. هذا جمد الدم فى عروقى ..

من أين يأتى ؟

هناك جوار هذه الأشجار التى يكسوها الثلج كانت تلك الفتاة منكمشة على نفسها تطلق هذا العواء ..

دنوت أكثر فوجدت فتاة بارعة الحسن رقيقة جدًا .. ازرقت أطرافها فبدت كشبح .. كانت تتجمد فعلاً ..

ـ « من أنت ؟ »

ـ « أنا (مارى) .. »

طبعاً كان الأمر واضحاً بالنسبة لى .. هذه هى الجنية التى حبسوا أنفسهم فى البيوت خوفًا منها ، وأنا الأحمق الوحيد الموجود فى الخارج معها .. هذه هى تقاليد القصص المرعبة .. لكن ملامحها بددت الخوف من نفسى .. كانت هشة فعلاً خائفة فعلاً .. لو لم تكن هذه كائنًا بشريًا فمن أكون أنا ؟ لابد أننى ميت منذ عشرين عامًا إذن ..

ـ « لماذا تبكين ؟ »

قالت بلهجة إيرلندية تصلح للتدريس :

ـ « بيتى هناك .. » ـ وأشارت إلى أحد الأكواخ ـ « لكن أهلى لا يريدون أن يفتحوا لى .. هم خائفون لأننى تأخرت فى العودة .. »

ـ « جميل .. وهذا مبرر كاف لتركك تتجمدين حتى الموت هنا .. أحب هذا الحماس التربوى .. »

ابتسمتْ ابتسامة شاحبة أشاعت الدفء فى قلبى المتجمد ، وقالت :

ـ « ليس هذا عقابًا لى .. إنما هى الليلة التى يخرج فيها الشيطان (بيليال) .. هم يخشون أن يفتحوا الباب لى فيدخل (بيليال) .. »

(بيليال) من أتباع (إبليس) المعروفين فى الثقافات الغربية.. اسمه يبدأ بحرف B ومعنى هذا أننى عرفت مغامرتى القادمة .. الدفاع عن هذه الحسناء ضد شيطان ..

كانت ترتجف بعنف .. ثم أطلقت ذلك العواء الخارج من أعماق قلبها ..

هنا استبد بى مزيج من الغضب والشفقة والرعب .. هؤلاء الحمقى يتركون الخرافة تقتل هذه الفتاة الرقيقة .. سوف يتركونها حتى تتجمد ، وهى تعوى ألمًا بدعوى وجود شيطان بالخارج ، وفى الصباح سيقولون إن الشيطان هو الذى قتلها وليس غباءهم الشديد ..

الفتاة تعاود الصراخ ..

هكذا مشيت فى حزم أجر قدمى وسط الثلوج حتى بلغت ذلك الكوخ ..

دققت الباب مرارًا وصحت :

ـ « أنتم أيها البلهاء ! الفتاة ستموت من البرد ! لو لم تفتحوا لأبلغت الشرطة ! »

طالت المحاولة والصراخ بلا جدوى ..

فجأة سمعت من يتكلم بالإيرلندية من الداخل .. ثم انفتح الباب بصعوبة .. رأيت وجه امرأة عجوز ووجه شاب من الطراز الإيرلندى العصبى إياه ..

قال الشاب لأمه :

ـ « إنه رجل يا أماه .. »

قلت أنا فى عصبية :

ـ « ولست (بيليال) أيضًا"

هنا تنحت المرأة عن الباب لتسمح لى بالدخول .. هناك كانت المدفأة مشتعلة حولها يجلس ستة أفراد ينظرون لى فى شك ..

راح الثلج يذوب عن كتفى وحاجبى .. نار .. نار!

لم أدر متى وضعت العجوز قدحًا من الشاى الساخن فى يدى .. فرحت أعتصره فى نهم قبل أن أشربه ، وسرعان ما وجدت سلطانية مليئة بحساء ساخن كذلك فرحت أشربه دون أن أسأل عن محتواه ..

قالت المرأة :

ـ « معذرة .. إن زوجى مريض لهذا لا نفتح للغرباء .. »

ـ « أفهم هذا .. وموضوع (بيليال) هذا .. »

قال الفتى فى عصبية :

ـ « ما (بيليال) هذا ؟ منذ رأيناك وأنت تكرر الاسم .. »

ـ « السبب فى إغلاق أبوابكم .. ولكن .. »

وتذكرت على الفور سبب مجيئى . يا لى من غبى :

ـ « ابنتكم تبكى بالخارج ! .. يجب أن تدعوها تدخل .. »

هنا تبادلت المرأة نظرة مع الشاب .. اتجهت إلى النافذة وأزاحت الستار .. كان الثلج يكسوها من الخارج والرؤية مستحيلة ، لذا أحضر الفتى شمعة ألصقها بالزجاج .. بعد قليل بدأت دائرة تتكون وسط الثلج .. وأمكننا أن نرى ما يدور بالخارج ..

لم يكن ما رأيناه محببًا ..

كانت الفتاة (مارى) تلصق وجهها بالنافذة وترنو إلينا فى ثبات دون أن ترمش عيناها .. على شفتيها ابتسامة قاسية جمدت الدم فى عروقى ..

همست العجوز ، وهى ترسم علامة الصليب :

ـ « هذه ليست ابنتى ! »

ثم أعادت الستار وهتفت فى الفتى :

ـ « اذهب لترى أباك .. »

جرى الفتى وجريت معه .. أنا طبيب وربما كان هناك ما أقدر على عمله ..

غرفة نوم ضيقة .. فراش .. عليه رجل عجوز مدثر بالأغطية .. لكن عينيه شاخصتان إلى المجهول .. لم أحتج إلى أن أتحسس نبض عنقه .. إنه ميت جدًا ..

نظرت للفتى ونظر لى ..

وعلى باب الغرفة رأيت المرأة .. كانت تنظر لنا نظرة معناها (هل كان ما توقعناه صحيحًا ؟) .. قال الفتى :

ـ « لقد توفى يا أماه .. »

فقدت المرأة قدرتها على الوقوف وتهاوت قدماها ..

قال الفتى وهو يساعدها على النهوض :

ـ « لقد سمعت البانشى Banshee تعول فى الخلاء أمس ولم أرد أن أصدق .. لكننا الآن رأيناها تطل من نافذتنا .. ! »

هنا فقط تذكرت ..

لقد كانت قصة (بيليال) هذه نوعًا من التضليل ..

(البانشى) تلك الجنية التى تجدها فى أساطير الإيرلنديين والغال منذ القرن الثامن الميلادى حتى اليوم .. التى تعوى خارج البيت فيعرف سكانه أن واحدًا من أفراد الأسرة سيموت ..

قد يكون عواؤها رقيقًا حزينًا إذا كانت تحب أفراد الأسرة ، وقد يكون مريعًا مخيفًا إذا كانت تكرههم ..

هناك أسر بعينها ارتبطت بالبانشى .. وما حدث لى هو أننى جلست مع البانشى وتبادلنا الحديث .. وحاولت أن أسمح لها بالدخول ..

لم تكن تعوى من البرد ..

كانت تنذرهم بموت رب الأسرة ..

C

بين الظواهر الكونية الغامضة تتكرر بكثرة تيمة (الإنسان ـ القرد) الذى يمثل حلقة مفقودة ما .. أشهر مثالين لهذا هما (الياتى) فى الهيملايا و(الساسكواش) فى غابات أمريكا الشمالية .. هناك فى كل قارة دستة من هذه المخلوقات .. كل القصص متشابهة على كل حال .. هناك من رأوه فى الدغل من بعيد وفر منهم .. العالم الفلانى رآه والتقط صورة .. وترى الصورة فتجد ظلاً مبهمًا بين الأشجار يمكن أن يكون كرسى حمام أو (مارلين مونرو) أو زوج خالتك .. لكنك ترى هذا العالم بثياب المستكشفين وقد أطال شعر شاربه وجعله يتصل بسالفيه ، والغليون بين شفتيه ، فتؤمن أن ما يقوله صادق ..

نحن الآن فى إحدى غابات الأمازون .. الظلام دامس فيما عدا نار المخيم التى أشعلناها ..

نحن فى أمريكا الجنوبية إذن .. لا أعرف كيف ولماذا جئت هنا ، لكن الأخ (لوكيريو) أراد ذلك ..

أنا مع فريق من العلماء الذين يعملون لدى (ناشونال جيوجرافيكس) .. معنا مصورون علميون ممتازون وعدد من الوطنيين ..

هذا طبيعى .. لو لم تهتم (ناشونال جيوجرافيكس) بذلك المخلوق الغريب الذى يُشاهد كثيرًا فى هذه الغابات فمن يهتم ؟

يقول د. (دوجلاس ماهون) العالم الأمريكى الشهير :

ـ « روح الأدغال .. هذا هو ما نبحث عنه .. أحيانًا يطلقون عليه اسم (ماتويو) .. »

سمعت الاسم ونظرت لساعتى .. الثالثة صباحًا .. آسف يا شباب .. ليس هذا هو المسخ الذى يجب أن أقابله .. مسخى الخاص يبدأ اسمه بحرف C .

لابد أننى سأقابل ذلك المسخ أثناء بحثنا عن هذا الـ (ماتويو) ..

كان الوطنيون يشوون غزالاً وهم يثرثرون بالإسبانية أو لغات محلية أخرى .. ملت أسأل العالم الأمريكى :

ـ « هل تتوقع أن تجده برغم هذا الصخب .. مشكلة هذه الكائنات أنها لو وُجدت تكون خجولاً جدًا .. »

ـ « على الأقل سوف نجمع شهادات الشهود .. معنا مترجم . لا آمل فى الكثير من الحظ الحسن .. »

جاءت (مارجريت) العالمة التى تعمل مع هذا الفريق ، وقالت فى شىء من الحرج :

ـ « مشكلة المرأة هى أنها لا تجد حريتها كاملة عندما تكون مع فريق من الرجال .. أريد قضاء حاجتى ولكن .. »

بما عُرف عنى من تهذيب وكياسة أشرت لها خلف حزام الأشجار وقلت فى مرح :

ـ « اذهبى إلى أى مكان هناك .. لديك غابات الأمازون كلها ! »

لكن وجهها احمر ودنت منى أكثر لتهمس :

ـ « أنت لا تفهم .. لابد من شخص يرافقنى .. أنا لن أجتاز هذه الأشجار وحدى .. وبما أنك جنتلمان .. »

وهل عُرف عنى أننى خبير فى مرافقة النساء الراغبات فى قضاء حاجتهن ؟ شىء يثير الغيظ دعك من أنه لا يخلو من إهانة .. لماذا أنا بالذات ؟ المرأة لا تخجل ممن لا تعتبره رجلاً .. تذكر كيف تنزع الملكة ثيابها أمام الأغوات بلا خجل لأنها لا تراهم رجالاً على الإطلاق .. من المفيد لصحة الرجل النفسية أن تخجل منه المرأة وتهابه نوعًا ..

لكن اللياقة هى اللياقة ..

هكذا نهضت .. أخذت كشافًا كهربيًا ، فقال لى العالم الأمريكى باسمًا ، وقد فهم ما هنالك :

ـ « لا تتأخرا ولا تتوغلا بعيدًا .. »

قلت فى رقة :

ـ « هذا يتوقف على إصابتها بالإمساك من عدمه .. »

ومشيت والعالمة الأمريكية خلفى لنجتاز نطاق الأشجار .. مشينا مسافة لا بأس بها أبدًا ..

دخلنا بقعة مظلمة .. فتشت بدقة عن أرض نظيفة جافة وسط هذا المكان الرطب الذى يذكرك بمستنقع .. الرطوبة عالية جدًا والحشرات توشك على أن تمزقك ..

نظرت لأعلى بالكشاف كى أتأكد من أن ثعبان الأناكوندا المعتاد لن يثب من الشجرة ليخنقها .. ولا الفهد كذلك .. ثم فتشت الأرض بعناية كى أتأكد من أنه لا يوجد أى عقرب من عقارب أمريكا الجنوبية القاتلة ..

لحظة ..

كان هناك وحش هنا .. هذه الأقدام المخلبية تدل على ذلك .. لكنه قد ابتعد على كل حال .. لا أعرف نوعه لأننى لم أكن فى فريق الكشافة ..

أشرت لها إلى البقعة وقلت وأنا أبتعد :

- « خذى راحتك .. أنا واقف خلف تلك الأشجار .. »

أظرف ما فى الموضوع انها تعتقد أننى قادر على مصارعة ذلك الفهد الذى سيثب فوقها ، أو أن أحطم عظام الأناكوندا التى ستهشم قفصها الصدرى .. لسبب ما اعتبرتنى (طرزان) ..

وقفت أنتظر وأصغى للغابة ..

لا أدرى هل أنا أحلم أم أن هناك ضوضاء تأتى من جهة المعسكر .. لابد أنهم يحتفلون .. لابد أن فريق (ناشونال جيوجرافيك) يصور هذا كله .

بعد قليل عادت لى (مارجريت) وقالت إنها شاكرة .. هززت رأسي.. فقط التعبير الوحيد الممكن عن الشكر هو ألا تلمسينى من فضلك لأنه لا يوجد ماء هنا ..

ومشيت معها عائدين إلى المعسكر ..

معسكر ؟

* * *

لم يعد هناك شىء ..

المعسكر كما عرفناه تحول إلى فوضى كأن قنبلة ذرية انفجرت فيه ..

النيران تشتعل .. المقاعد مقلوبة .. الخيام ممزقة .. هناك ثلاث جثث ممزقة الحلوق ملقاة هنا وهناك ..

نظرت لها ونظرت لى فى رعب ...

ماذا حدث ؟ وهل تأخرنا عشر دقائق أم عشرة أيام ليحدث هذا كله ؟

ماذا جرى هنا ؟ لا يوجد جرحى .. أين الباقون ؟ لا يوجد من يحكى لنا أى شىء ..

قالت بصوت كالفحيح :

- « (ماتويو) ! »

- « هل هو قادر على هذا ؟ لو كان هو (كنج كونج) ذاته فلا أحسبه يستطيع هذا بتلك السرعة .. »

- « إنه شرس سريع الحركة .. بالفعل لا أحد سواه يقدر .. »

ثم أشارت إلى آثار أقدام على الأرض الترابية وهتفت :

- « هل ترى ؟ كان هنا ! »

نفس الآثار التى رأيتها عندما انتظرتها .. لكن .. الآثار التى رأيتها كانت تبتعد باتجاه الغابة .. متى جاء هذا هنا ؟

دوى صراخ وحشى بين الأشجار فهتفت :

- « لربما عاد ..!.. يجب أن نفر من هنا .. »

هكذا انطلقنا فى الأحراش لا نهتدى بشىء إلا ذلك الكشاف .. كانت فكرتى بسيطة جدًا هى أن نمشى فى اتجاه غير الذى تتجه له آثار الأقدام الواضحة فى الوحل .. على الأقل نحن نبتعد بهذه الطريقة ..

مشينا كثيرًا جدًا .. والمشى فى غابة الأمازون كابوس لا يمكن وصفه ..

لا أعرف كيف لكن آثار الأقدام تزداد قوة ووضوحًا برغم أن ذلك الكائن مشى من هنا منذ ما لا يقل عن ثلاث ساعات ..

فجأة توقفنا ..

رأيت فى ضوء الكشاف ذلك الصبى الصغير يجلس القرفصاء على حجر بين الأشجار .. كان ينظر لنا ..

عارى الجذع يبدو واضحًا أنه من أبناء القبائل هنا ..

دنونا منه أكثر .. رفع وجهه نحوى .. هنا أطلقت شهقة ..

كانت عيناه حمراوين بلون الدم .. وله أذنان مدببتان ككل جنى غابة يحترم نفسه .. وحينما فتح فاه رأيت أن أسنانه ذات لون أخضر كأنه كان يلوك بعض الأعشاب ..

هذا الصبى جنى غابة أو شيطان ، لا شك فى هذا ..

تراجعت بينما هو ينظر لى بثبات ..

قالت (مارجريت) وهى تمسك بيدى :

ـ « إنه الكوروبيرا ..!.. فليرحمنا الله ! إنه الكوروبيرا Curupira »

قلت لها فى دهشة :

ـ « كنت تتحدثين عن وحش آخر هو الـ (ماتويو) .. »

ـ « هما نفس الشىء .. إن له اسمين ! »

الآن أفهم .. هذا هو حرف الـ C الخاص بى .. شيطان الغابات فى أمريكا الجنوبية .. الطفل الشرس المتوحش الذى يمزق الصيادين .. أحيانًا يرسمونه ، وهو يركب خنزيرًا بريًا .. مشكلة هؤلاء القوم فى (ناشونال جيوجرافيكس) هى أنهم كانوا يتكلمون عن شيطان غابات ولم يحددوا صفات أكثر دقة ..

قلت لها وأنا أتراجع وضوء الكشاف لا يفارق هذا الكائن المريع :

ـ « لا أفهم .. آثار أقدامه توضح أنه جاء من هنا ليتجه نحو المعسكر ويهاجم رفاقنا .. كيف وجدناه هنا مع أننا مشينا عكس آثار الأقدام ؟ »

ـ « تذكرت السبب الآن .. لأن قدميه .. قدميه .. »

فى هذه اللحظة وقف الصبى للمرة الأولى ففهمت السر .. إن قدميه متجهتان للخلف !

هذه هى الطريقة التى يخدع بها أعداءه .. يحسبون أنهم فروا منه وهم يقتربون .. يحسبون أنهم يدنون منه وهم فى الحقيقة يبتعدون ..

الكوروبيرا شيطان أمريكا الجنوبية ذو القدمين المعكوستين !

كان هذا قبل أن يثب فى الهواء برشاقة لا توصف ..

وفى اللحظة التالية كان يجثم فوق (مارجريت) يمزق حلقها بأسنانه الحادة..

جريت .. جريت ..

لكنى كنت أعرف أنه لن يستغرق وقتًا ..

لقد قتل كل رجال الحملة فى خمس دقائق ، فكم يستغرق من الوقت مع واحد مثلى ؟

* * *

D

الرابعة صباحًا ..

لماذا أنا هنا ؟ لماذا أقف فى هذا البرد ؟

هذه كنيسة فى بلد أوربى ما ..

أنا أقف بالخارج ليس هناك جليد ولا مطر ، لكن الجو بارد ..

لا غرابة فى هذا فى الرابعة صباحًا ..

أرتجف وأدس يدى فى جيب المعطف .. أجراس الكنيسة تدق .. هل هو عيد ما .. لا أعتقد .. الثلج هو الذى يميز الكريسماس فى الخارج .. ربما كان هذا هو عيد القيامة ؟

يقترب منى ذلك الرجل العجوز الذى يلبس ثيابًا حال لونها .. لحية نصف نامية .. قبعة .. معطفًا ثقيلاً .. زجاجة يبرز طرفها من جيبه .. يلهث مما يدل على أن مستوى الحموضة فى دمه عال حقًا ..

يقول :

- « الطقس بارد يا زميل .. »

أنظر له فى دهشة .. زميل ؟

هنا يمر أحد المصلين خارجًا من باب الكنيسة .. قبل أن أفهم ما يحدث وجدت قطعة عملة فى يد الرجل وفى يدى !

قال الرجل فى مرح :

ـ « يصيرون كرماء جدًا الليلة .. ليلة صيام القديس (مارك) .. أنت غريب .. أليس كذلك ؟ »

هززت رأسى شاعرًا بأن قطعة النقود تحرق كفى .. إذن أنا أبدو متسولاً ..

قال الرجل وهو يخرج الزجاجة من جيبه :

ـ « هل لك فى جرعة ؟ لا .. ليكن .. سأشرب لى ولك .. فى هذه الليلة يظل الجميع ساهرين ، لكنهم يراقبون الكنيسة .. أنت تعرف هذا .. الرابع والعشرون من إبريل .. »

ثم ضحك طويلاً وقال :

ـ « لكن لك أن تطمئن .. أنا لست منهم .. »

ثم قرب فمه ذا الرائحة الكريهة من أذنى وقال :

ـ « بينى وبينك .. يعتقد الكثيرون أن هذا يحدث فى منتصف الليل .. هذه خرافة .. الموعد المحدد هو الرابعة صباحًا .. »

إذن هو الآن .. لكن ما هو بالضبط ؟

قال لى السكير العجوز :

ـ « اسمى (ميلر) .. أنا فى السبعين اليوم .. هذه سن كانت تستحق الراحة ، لكن لا راحة .. والسبب هو هذا السم .. »

ولوح بالزجاجة فى وجهى وقال :

ـ « ماتت زوجتى وتخلى عنى أولادى .. اليوم أنا لا أملك قرشًا .. كل ما أفعله هو أن أتسول .. من الغريب أن يتسول المرء فى الرابعة صباحًا لكن ليلة القديس (مارك) تختلف .. »

وأشار إلى البلدة التى لاحظتها الآن لأول مرة ..

بلدة أوروبية صغيرة يمكن أن تكون جميلة .. هنا يمكن أن يكتب الأخوان (جريم) عشرات من قصصهما .. هنا لا تمشى الفلاحات إلا بحذاء خشبى ، وكل بيت له سقف خشبى مائل ومدخنة ..

لكن البلدة ما زالت فى الظلام .. أنوار نوافذها مضاءة .. ثمة شىء يوحى بأنها تنتظر ..

قال لى المتسول العجوز :

ـ « لا يغرنك هذا الصمت.. هناك من ينتظر خلف نافذته فى قلق .. هناك من سيأتى ليلقى نظرة .. »

بالفعل بعد قليل ظهر عدد من الأهالى ..

كانوا متأنقين كأنهم ذاهبون لقداس الأحد .. لكنى لاحظت أنه لا أطفال .. فقط رجال ونساء .. نظرات قلقة فى العيون ..

يقفون قرب الكنيسة حيث وقفت أنا ويتبادلون النظرات .. البعض يمسك بأيدى من يقف جواره ..

ماذا يحدث هنا ؟

ثمة شىء مخيف لكنى لا أعرف ما هو ..

* * *

فجأة تعالت الصيحات :

ـ « لقد جاءوا ! »

ورأيت الكل يتراجع للخلف .. فعلت مثلهم غير فاهم ..

رأيت موكبًا آخر من رجال ونساء وأطفال يمشى فى تؤدة متجهًا إلى الخلاء أمام الكنيسة ..

من هؤلاء ؟ من اين جاءوا ؟؟

كانوا يمشون ببطء وثبات .. وجوه شاحبة صامتة .. لا ينظرون لنا ..

وسمعت الناس يتصايحون :

ـ « هذا (فرانتس) !.. هذه (هيلجا) ! يا للعجب ! (هيلجا) قبل زوجها ؟؟؟ »

فجأة رأيت المتسول (ميلر) الذى أقف جواره .. رأيته يمشى وسط هؤلاء القوم .. نظرت جوارى لأرى كيف ومتى استطاع ان ينضم لهؤلاء بهذه السرعة ..

لكنى وجدته ما زال واقفًا جوارى !

إن له أخًا توءمًا كما هو واضح .. يبدو مثله ويمشى مثله وسط هؤلاء القوم الذين يشقون طريقهم نحو الخلاء فى هذا الموكب المرجف ..

نظرت لـ (ميلر) فوجدت فمه مفتوحًا فى ذهول .. سقط فكه وتفصد جبينه بالعرق .. أخرج منديلاً عملاقًا وراح يجفف جبينه ..

قال وهو يرتجف :

ـ « ولكن .. ليكن .. إن سبعين عامًا ليست بالشىء البسيط .. »

سألته فى حيرة :

ـ « عم تتكلم بالضبط ؟ »

نظر لى بعينين زائغتين .. ثم قال وهو يجفف عرقه :

ـ « أنت لا تعرف شيئًا على الإطلاق .. فى ليلة الرابع والعشرين من إبريل نقف هنا خارج هذه الكنيسة وننتظر .. هنا نرى موكب الـ Dopplegangers .. القرناء .. هؤلاء الذين سيموتون فى العام القادم .. هؤلاء ليسوا بشرًا حقيقيين .. إنهم أطياف .. ما تراه أنت هناك هو قرينى .. معنى هذا أن نهايتى قد دنت .. دنت .. دنت .. »

وأخرج زجاجة الخمر وراح يعب منها كالحمار الظمآن ..

هنا تذكرت القصة كلها .. هناك نوعان من هذه الأشباح فى الثقافة الغربية .. شبح هو النذير أو Wraith ومعناه أنك تقابل شبحًا يجمد الدم فى عروقك ، ثم تكتشف أن صاحبه حى وفى مكان آخر بعيد .. على الأرجح يعنى هذا أن صاحبه سيموت قريبًا .. النوع الثانى هو الـ Doppleganger أو القرين .. وهى لفظة ألمانية معناها (السائر المزدوج) .. معنى أن ترى القرين الخاص بك هو أنك ـ لا سمح الله ـ فى آخر أيامك ..

من الطرق المعروفة لرؤية موكب القرناء هذا أن تقف خارج كنيسة فى عيد القديس (مارك) لتراقب الأطياف التى تظهر فى منتصف الليل ..

حسن .. يبدو أن الرابعة صباحًا رقم أدق ..

الآن عرفت ما سيحدث وما سألقاه ..

إنها الرابعة صباحًا .. وأنا على موعد مع خطر أو مسخ يبدأ اسمه بحرف D ..

إذن نحن نتكلم عن الـ Doppleganger الخاص بى ..

فقط يجب أن أبحث عنه بعناية وسط هذا الزحام ..

هو ذا .. هل تراه ؟

هناك وسط الصف المتحرك يوجد (رفعت إسماعيل) آخر شاحب .. يمشى فى صمت ..

ينظر لى حيث مشى وسط الآخرين ..

خيل لى للحظة أنه ابتسم ابتسامة خافتة ، ثم واصل المشى مع من كانوا معه ..

* * *

E

الخامسة صباحًا ..

ضوء الفجر الحزين الجميل يتسلل إلى الأفق .. كما يتسرب الدم ليصبغ الماء عندما يجرح أحدهم أثناء السباحة .. لن أندهش لو رأيت سمكة قرش عملاقة تسبح فى الأفق ..

أرى تلك الأجسام العملاقة على الساحل كأنها وحوش غافية .. عمالقة تنتظر لحظة الإيقاظ لتفطر بى ..

جزيرة عيد الفصح Easter island .. هكذا سماها المستكشف الهولندى الذى رسا على ساحلها عام 1722 فى عيد الفصح ..

جزيرة مساحتها نحو مائة كيلومتر مربع فى جنوب المحيط الهادى .. وهى تخص حكومة (شيلى) ..

لكن هذه الجزيرة تشتهر بتلك التماثيل العملاقة التى تمثل وجوهًا كئيبة تتناثر على الساحل .. لا أحد يعرف من صنعها ولا متى . من المؤكد أن سكان الجزر الأصليين كانوا من هنود أمريكا الجنوبية ، ثم جاء البولينيزيون بقواربهم وأبادوا هؤلاء السكان وعاشوا على الجزيرة .. فقط ليجدوا من يذبحهم بدوره ، بحيث لم يعد منهم سوى مائتى بولينيزى يسكنون على الساحل الغربى للجزيرة ..

حاليًا هناك مائة تمثال يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة أمتار و12 مترًا .. كل مجموعة تماثيل ترتكز على منصة تدعى (آهو ahu) .. وبين هذه المنصات كهوف ..

جزيرة عيد الفصح Easter island ..

وأنا هناك فى ضوء الفجر ..

الساعة الخامسة ومعنى هذا أن تلك التماثيل هى كابوسى الحالى ..

* * *

لا أعرف أين يوجد الفندق ..

لا أعرف أى شىء على الإطلاق سوى أننى أمشى على الرمال الناعمة ومن بعيد أسمع هدير أمواج البحر ..

أتقدم نحو أكبر هذه التماثيل ..

تصور تمثالاً يدنو ارتفاعه من أربعة طوابق ! مشهد يثير الرجفة فى القلوب .. هذه لعبة قديمة جدًا لدى الكهنة فى كل عصر .. عندما يعوزك المنطق فعليك بالضخامة !

كانت واقفة هناك بين تمثالين ..

تلك السمراء الجميلة التى يدل كل شىء فيها على أنها من أصل أسبانى .. تبدو كالحلم فى ضوء الفجر ..

تقول لى بالإنجليزية :

ـ « أنت دقيق فـى مواعيدك يا (رفعت) .. لقد جئت فـى الخامسة صباحًا بالضبط .. »

هززت رأسى بطريقة من يقول (ألم أقل لك ؟) .. طبعًا لم أقل حرفًا عن كونى لا أعرف من هى ولا كيف جئت هنا ..

قالت لى وهى تنظر للسماء :

ـ « الآن .. قلت لك إن هذا يحدث فى الخامسة صباح كل يوم .. »

رفعت رأسى للسماء لأرى اللون الأحمر قد تزايد فى الأفق الشرقى ..

ماذا تتوقع أن تراه ؟

فجأة شهقت من الدهشة .. كانت تلك الأضواء تتلاعب بين الغيوم .. لا شك فى هذا .. أقراص مضيئة تروح وتجىء بلا انقطاع وتتقابل ثم تتباعد ..

ثم سقط شعاع على التمثال الذى نقف جواره فتألق بلون أزرق غامض ..

قالت وهى تشهق انفعالاً :

ـ « هل ترى هذا ؟ هل فهمت .. إنهم جاءوا هنا منذ أعوام سحيقة .. فى فجر التاريخ .. البولينيزيون حسبوهم آلهة ونحتوا

هذه الوجوه البركانية العملاقة على سبيل استرضائهم .. هذه هى وجوههم .. هكذا يبدون ! »

ـ « من الذين جاءوا ؟ »

أشارت إلى السماء وقالت :

ـ « لماذا لا تسألهم بنفسك ؟ »

ثم مدت يدها الدقيقة تمسك بيدى وراحت تتسلق الصخور .. نحو واحد من تلك الكهوف بين التماثيل ..

قالت لى وهى تلهث :

ـ « فى هذه الكهوف سوف ترى أول نموذج للكتابة بالرسم .. هنا كان البولينيزيون يعيشون .. »

ثم أضاءت كشافًا وطلبت منى أن أتقدمها إلى الداخل ..

كان الكهف مظلمًا ..

يبدو أنه كان مطروقًا .. بالطبع لم يترك السياح حجرًا فوق حجر هنا ..

لكنها اقتادتنى إلى ممر جانبى وسلطت ضوء الكشاف على الجدران ..

شهقت انبهارًا للمرة الثانية ..

كانت هنـاك رسوم دقيقـة غايـة فـى الروعـة .. تظهـر تلـك الأضواء الغريبة التى رأيناها فى السماء .. ثم كانت هناك رسوم تظهر كائنات عجيبة لها رءوس كرءوس تلك التماثيل تمشى بين الأهالى وهم يجثون راكعين .. هناك رسوم للتمـاثيل ذاتهـا .. ثـم هناك رسم لكاهنة تقف رافعة يديهـا أمـام تلك الأضـواء .. إنهـا تقدم قربانا بشريًا .. ترفع سكينًا نحو السماء ..

قلت لها فى انبهار :

ـ « يبدو أن هذه صارت ديانة تُمارس فى فترة من الفترات .. »

قالت وهى تطفئ الكشاف :

ـ « ما زالت .. إن البولينيزيين الباقين هنا ما زالوا يؤمنون بها .. »

ثم هزت شعرها الجميل وقالت :

ـ « إن عملى كدارسة للثقافات الشعبية جعلنى أختلط بهم بشكل متكرر وأعرف يقينًا أنهم يؤمنون بهـذه الأشياء ، لكنهم يخفون معتقداتهم عن الحكومة .. »

فى وسط الكهف كان هناك سرير حجرى .. وهو ملوث بـالدم .. دم جاف لكنه ليس قديمًا لهذه الدرجة ..

قلت لها وأنا أتفحص السرير :

ـ « لا يبدو قديمًا لهذا الحد .. »

ـ « قلت لك إن العقيدة ما زالت تُمارس .. »

نظرت لساعتى .. لقد حان وقت الرحيل إذن ..

لكنى على باب الكهف رأيـت ستة مـن هؤلاء البولينـيزيين .. كانوا يلبسون ثيابًا عصرية لكن ملامحهم ، وكـل شـىء فيهم يـدل على أنهم بدائيون تمامًا ..

كانوا يحملون سيوفًا غريبة الشكل لها نصل مربـع .. وكـانت عيونهم تلمع فى الظلام ..

قالت الفتاة ، وهى تصوب الكشاف على رسوم الجدار :

ـ « من الغريب أنك لم تدقق فى الصورتين الأخيرتين .. »

عدت أنظر ..

كانت الصورة تمثل رجلاً نحيلاً أصلع الرأس ينظر للسماء .. الرجل النحيل يمسك بيد الكاهنة التى تقوده لكهف .. ثـم الرجل النحيل ينام كقربان بشرى على مائدة التقدمات ..

رفعت عينى نحوها فقالت ضاحكة :

ـ « هذه ليست رسومًا جديدة .. إنها تعود لثلاثين ألف عـام ! هل تتصورّ هذا ؟ منذ ثلاثين ألـف عـام رأى هؤلاء القوم تلك اللحظات التى نمر بها الآن .. »

ثم همست ، وهى تغمض عينيها :

ـ « نحن نؤمن أنه لابد من دماء بشرية وإلا فلن يعود هؤلاء من السماء .. كل شىء معد لعودتهم لكنهم لا يأتون .. لماذا ؟ لأن الأرض لم ترتو بما يكفى ! »

ألقانى البولينيزيون على المائدة ، وقيدوا يدى وقدمى ..

ومن مكان ما أضيئت عدة مشاعل ..

خارج الكهف ما زالت الأضواء تتراقص فى السماء ، بينما التماثيل العملاقة تنظر فى لا مبالاة إلى البحر ..

وأنا ..

أنا طقس مهم من طقوس تلك العبادة المنقرضة ..

لقد حللت اللغز لكن متأخرًا جدًا ...

F

قالت لى د. (عزة) وهى تقف خارج القفص :

ـ « إنه يتعلم .. أنا واثقة من ذلك .. »

كانت قد أطلقت عليه اسم (فيرو) .. لا أعرف السبب بالضبط ، لكن الاسم بدأ ينطبق عليه بعد قليل .. هذا شأن أى اسم مهما بدا لأذنيك شاذًا غير مريح .. لو أنك أطلقتِ على قطك اسم (السلحدار) فلسوف يصير هو (السلحدار) فعلاً بعد أيام ، ولن تتصور أن أى اسم آخر كان يناسبه سوى هذا ..

لكن لماذا يضعون الصبى فى قفص .. يبدو لى الأمر غير مريح على الإطلاق ..

كانت د. (عزة) خبيرة فى علم نفس الطفل ، لذا توقعت أنها تملك حيلاً أفضل من وضعه فى قفص كأنه وحش كاسر .. لكنها أشارت لى إلى يدها التى امتلأت بالجروح وقالت :

ـ « هذه هى نتيجة التعامل الرفيق الحنون معه .. »

ثم بدأت تحكى لى القصة التى كنت أعرفها على كل حال ، وإن كانت التفاصيل عندى أقل ..

* * *

كان المهندس (عدنان) وزوجته وطفلهما الصغير (حسن) هم الذين جرى البحث عنهم عدة أيام بلا جدوى منذ سبعة أعوام ..

لقد كانت طائرة الشركة تعبر الصحراء عندما انقطع الاتصال .. فقط كان آخر ما تمكنوا من تسجيله هو صوت ضجة وصراخ من الطيار ، ثم انقطع كل شيء ..

حلقت الطائرات تمسح الصحراء .. وخرجت عدةُ قوافل من الجمال للتفتيش فى المكان الذى يعتقد أن الطائرة سقطت فيه ، فلم يجد أحدهم شيئًا .

هكذا تم اعتبار المهندس وأسرته مفقودين .. وهى مأساة حقيقية إذا تذكرنا أن المهندس كان يصحب أسرته للمرة الأولى لتعيش معه فى مقر عمله ..

نسى الجميع ما حدث ..

لكن منذ أسابيع كانت سيارة جيب تعبر نقطة من الصحراء الغربية عندما خيل لركابها أن هناك طفلاً يركض فى الصحراء .. كان يجرى على أربع ويثب فوق الكثبان الرملية ببراعة غير مسبوقة .. الغريب أن مجموعة من الضباع كانت تركض حوله وخلفه ..

هكذا راحت السيارة تطارده ، وترجّل الراكبون وهرعوا خلف الكثبان ..

صحيح أنهم لم يملكوا رشاقته لكنهم تغلبوا على هذا بكثرة عددهم .. وسرعان ما تمكنوا من القبض عليه ..

كان عاريًا تمامًا .. عمره يناهز سبعة الأعوام .. وكان قذرًا بشكل لا يُطاق ..

عندما أمسكوا به راح يخمش ويعض بأنيابه الحادة ، واتضح أنه لا يعرف حرفًا واحدًا من اللغة .. فقط كان يزأر ويزمجر كالوحوش ..

فى مكان ما تذكر أحدهم قصة عن طفل فقد مع أبويه منذ سبعة أعوام ..

وهكذا بدأت القصة تتضح ..

هذا الصغير هو (حسن) بالتأكيد ...

* * *

قالت د. (عزة) :

ـ « الأطفال الآبدون Feral Children هم الأطفال الذين فُقدوا فى البرية ، وقامت الوحوش بتربيتهم .. طرزان ـ برغم أنه شخصية خيالية ـ هو النموذج الأشهر للأطفال الآبدين .. بالتالى هم يعجزون عن التفاهم بلغتنا .. »

كنت أعرف شيئًا عن هذا الموضوع .. إن العلم يحكى عن 40 طفلاً من هذا النوع ، فى كل العصور وفى كل موضع من العالم تقريبًا .. هناك قصة الولد الذئب التى تعود لعام 1341 .. قصة بيتر هانوفر الذى وجدوه عام 1724 .. قصة الصبى الخروف الإيرلندى التى تعود لعام 1672.. والصبى الدب البولندى ..

هناك قصص تبين أنها أكذوبة ، ومنها قصة (كامالا) و(آمالا) الهنديتين اللتين قيل إنهما نشأتا بين القردة عام 1920 ..

لكن هناك قصة مثيرة عن الصبى الأوغندى (جون سبونيا) الذى تربى مع القردة وقد عرفه العالم فى الثمانينات من القرن العشرين .. كان الجميع يعتقد أنه نصاب ، حتى جعلته خبيرة تخاطب يجلس مع مجموعة من القردة العليا ، ولاحظت الأصوات

التى يصدرها ، وكيف أن مجتمع القردة تأقلم معه على الفور ، وراقبت فى ذهول كيف ظل يتفاهم مع القردة لعدة ساعات.. بعدها أعلنت للعالم أن القصة حقيقية ، وأن هذا الصبى قضى مع القردة فترة لا تقل عن خمسة أعوام ..

الآن نحن نقابل أول حالة يعرفها العالم عن صبى نشأ مع الضباع ..

لقد أطلقت عليه (عزة) اسم (فيرو) لتوفر على نفسها عناء لفظ عبارة Feral Child فى كل مرة .. كانت خبيرة فى نفسية الأطفال ، وقد جهزت له هذه الغرفة فى المستشفى الخاص الذى تعمل به .. غرفة هى أقرب شىء إلى عرين الأسود فى حديقة الحيوان . وقد وجدت التمويل لدى إحدى الجهات البحثية المهتمة بالأمر ..

قالت لى وهى تتأمله من وراء القضبان ، وهو يلتهم قطعة كبيرة من اللحم المسلوق :

ـ « إنه يعرف قصصًا مثيرة كثيرة.. لابد أن حياته مع الضباع جديرة بأن تدوَّن بدقة .. لكنى أخشى أن ينسى كل شىء يوم

يستعيد النطق .. هذا يحدث على فكرة مع معظم هؤلاء الأطفال الآبدين .. »

كانت قد طلبت رأيى المزدوج لسببين .. السبب الأول هو فقر الدم المستعصى الذى وجدوا أن الصبى يعانى منه .. السبب الثانى هو خبرتى بالأمور الخوارقية .. طبعًا لم أقدم لها الكثير فى الموضوع الثانى لأننى لم أر شيئًا كهذا من قبل ...

قلت لها :

ـ « على كل حال .. عملك هو أن تعيدى لهذا الصبى بشريته .. ليس عملك كتابة مذكراته .. فلينس كل شىء عن حياة الضباع .. فليعش حياة طبيعية .. »

قالت لى :

ـ « تعال إلى مكتبى لتشرب القهوة وتشرح لى وجهة نظرك فى القصة .. »

هكذا جلست عندها وسمعت منها وسمعت منى .. وفى ساعة متأخرة من الليل انصرفت عازمًا على أن أنسى القصة برمتها ..

* * *

فى السادسة صباحًا اتصلت بى فى بيتى مذعورة ..

سألتها عما هنالك فقالت وهى موشكة على البكاء :

ـ « القفص خاو ! لقد هرب ! »

ـ « كيف ؟ إنه لا يستطيع الطيران حتمًا .. »

ـ « إنه صغير الحجم ومرن . أعتقد أنه حشر جسمه بين القضبان حتى استطاع الخروج .. »

ـ « متى حدث هذا ؟ »

ـ « غالبًا تم فى الليل .. لقد دخلت اليوم لأقدم له الإفطار فلم أجده .. أرجوك أن تأتى يا دكتور .. أنا عاجزة عن التفكير .. إنه شديد الشراسة ويمكن أن يسبب كارثة .. سنه سبع سنوات لكنه قوى كالأفيال .. »

كان هذا مما يثير الغيظ .. أليس عندك رجال أمن ورجال شرطة .. أليس عندك بوابون وعمال .. ما دورى أنا فى هذا ؟

لكنها كانت فى حال هستيرية حقيقية ؛ لذا ارتديت ثيابى وهرعت إلى سيارتى .. استجاب المحرك اللعين لى بعد 5686 محاولة .. أكاد أسمعه يتذمر بسبب إيقاظه مبكرًا ..

الطقس بارد .. هذا موعد نومى .. لكن ما باليد حيلة .. هنـاك طفل آبد يجب القبض عليه ..

كانت فى ذهنى خطة واضحة ..

هناك مقابر قريبة جدًا من المستشفى الخـاص .. لو لم يتجه الضبع إلى المقابر فأين يذهب إذن ؟

سوف أبحث عنه هناك ..

أدرت المقود واندفعت عبر شوارع المدينة الخالية ..

من أين يأتى صوت هذا الخوار المكتوم ؟

هذه الرائحة الكريهة ..

لا أفهم ..

ثم شعرت بالأنفاس الحارة على عنقى من الخلف ..

أنظر لمرآة الرؤية الخلفية فـأراه .. أرى (فـيرو) يقـف علـى المقعد الخلفى وقد دنا من أوردة عنقى .. أسنانه الحادة ونظرتـه الشيطانية تذكرنى بضبع حقيقى .. ما كل هذا الخـوار .. مـا سـر هذه الأنفاس اللاهبة ؟

لقد فر ليلة أمس بينما أنا أشرب القهوة فى غرفـة د. عزة .. لم تكن هنـاك إلا سيارة واحدة واقفـة أمـام المستشـفى .. وهـذه السيارة تركها صاحبها الأحمق مفتوحـة الأبـواب كالعـادة .. مـن المعجزات الصغيرة أن أتذكر غلق أبواب السـيارة الأربعة عندمـا أترجل ..

الضبع الآدمى بحث عن مكان دافئ فلم يجد إلا المقعـد الخلفـى لهذه السيارة .. وجعله الشبع ينام على الفور ..

الآن موعد الإفطار .. لقد استيقظ .. وهو بحاجة إلى لحم نىء .. إلى دم .. هذه هى الطريقة كى يُشفى من فقر الـدم الحـاد الـذى أصيب به منذ جاء إلى المدنية ..

خاطبته فى المرآة :

- « صبرًا يا بنى .. اهدأ قليلاً ..! .. أنت لست ضبعًا .. أنـت إنسان ! لن تفعل مثل .. »

لكنه كان قد أنشب أنيابه فعلاً ..

* * *

G

فى السابعة صباحًا يصعب أن تتوقع أن تقابل خطرًا ..

هذا وقت يذكرك بنضرة الأطفال الذاهبين للمدارس .. بشطائر الفول .. بصوت غناء شادية .. يذكرك بأى شىء إلا أن يكون هو الوقت المناسب للرعب ..

لكنى أمشى بين المقابر ..

مقابر قريتى (كفر بدر) كما أعرفها وأحفظ كل حجر فيها ..

هنا قبر أبى وأمى .. أتوقف لأقرأ لهما الفاتحة وسورة ياسين .. ثم أبتعد ..

يقابلنى ذلك اللحاد العجوز وهو يحمل طبقًا من الفول يبدو أنه جلبه من القرية ، وتحت إبطه رغيفان .. إنه يهرع ليظفر بإفطاره ويبدو أنه أعد الشاى والمعسل ..

ـ « كيف الحال يا داكتور ؟ تفضل !! »

لا يوجد خطأ مطبعى . إنما هو مصر طبعًا على فتح الدال فى لفظة (دكتور) ..

ـ « أمس كنت عند قبر أبيك وقرأت له سورة (تبارك) .. »

شكرته ودسست بعض العملة فى جيبه لأن يديه كانتا مشغولتين ..

كدت أبتعد لكنه استوقفنى وقال :

ـ « لا تذهب نحو الحقل القبلى .. هناك أشياء غريبة تحدث منذ عدة أيام .. فليحفظنا الله .. »

وقبل أن أفهم كان قد جرى يسابق الريح كى يلحق بطبق الفول ساخنًا ..

تركنى فريسة للأفكار .. هناك عند هذا الحقل بالذات نبت ذلك النبات الشرير الشيطانى (موكاسا) ، واتضح أننى من قام ببذره هناك ليجد حاجته من النتروجين !

هل تكررت القصة ؟

هكذا مشيت فى ذلك الاتجاه ..

وقفت أنظر إلى القبور .. هنا قبر أسرة (الششتاوى) .. وهنا (أبو الدهب) .. لا يوجد شىء غريب ..

ثم سمعت ذلك الصوت ..

نظرت عبر البوابة الحديدية لحوش مقبرة (أبو الدهب) فوجدت من ينام بالداخل ..

ضخمًا كان .. يرقد على حافة شاهد القبر فى وضع مستحيل فيزيائيًا وقد غطى وجهه وراح يصدر صوت خوار ..

من هذا ؟

متسول أم متسلل .. شىء فى مظهره قال لى : إنه لا هذا ولا ذاك ..

جوار المقبرة وجدت ذلك الرفش الذى يستعملونه لتقليب التربة .. لابد أنه يخص اللحاد ونساه ..

هكذا أمسكت بالشىء الثقيل فى عناية . هو سلاح ممتاز يصلح لتهشيم الرءوس لو أردت .. ولو حركته فى وضع أفقى هو شبيه بالرمح ..

دنوت أكثر من النائم ..

هنا ارتجفت ..

لقد كانت فى يده عظمة .. عظمة آدمية .. وكان يمسك بها كما يمسك الصبى بلعبته وهو غاف ..

نظرت إلى الأرض جواره فوجدت بقايا من كفن ممزق .. ووجدت أشلاء ..

فهمت الآن ما يحدث هنا ..

مغامرتى تبدأ بحرف g .. نحن نتحدث عن غول Ghoul !!

* * *

فتح عينيه فالتقت عينانا ..

كان يشبه البشر بالتأكيد لكنه أكثر ضخامة وفظاظة .. له أنياب حادة وشعر منكوش مبعثر طويل .. أظفاره أيضًا كانت جديرة بغول ..

عينان حمراوان لا تكفان عن تأملى ..

إنه ينهض .. أدركت أنه يلبس أسمالاً ..

من أين جاءت الغيلان ؟ لا أحد يعرف .. لكن الأساطير تقول إن كل شىء يبدأ بالتهام لحم آدمى من ثم تبدأ هذه التغيرات التشريحية فى الجسم .. بالنسبة لى أعتقد أنها مجرد حالات أكل لحوم بشر .. لابد أن هذه العادة الذميمة تغير شكل الشخص تمامًا ..

هناك من تغير فى قريتى أو جوارها . وقرر أن يجد ما يسد رمقه فى المقابر ..

كلام اللحاد يدل على أن هذه ليست أول مرة ..

لابد أنه أخفى الخبر لأن غضب الأهالى سيكون عنيفًا .. سوف يتهمونه بالإهمال ولربما طردوه من هذا المكان ..

أنا الآن أقف أمام الغول لا يفصلنى عنه إلا الباب الحديدى ..

يذكرنى الأمر بمشاهدة الأسود فى حديقة الحيوان ..

لسبب ما لم يستطع أن يفر تحت أستار الظلام هذه الليلة .. ليعود لكوخه أو حياته البرية .. غلبه النوم فكان حظه الأسود ـ أو حظى الأسود ـ أن ضبطته متلبسًا ..

الآن هو يلتصق بالسور وينظر لى ..

قلت له بصوت أردته واثقًا فخرج راجفًا :

ـ « اهدأ قليلاً .. من أنت ؟ كيف وصل بك الحال لهذا الحد ؟ »

صدر منه الصوت بصعوبة :

ـ « بـ .. ى .. و .. مـ .. ى .. ى ! »

كأنه طفل يتعلم الكلام ..

ـ « من هو (بيومى) ؟ هل هو أنت ؟ »

ـ « بـ .. ى .. و .. مـ .. ى .. ى ! »

لو حاولت الفرار للحق بى .. لابد من المواجهة أو أن أجعله هو من يفر ..

انتظر حتى تسمع البلدة هذه القصة .. أتصور الحملة التى ستحمل المشاعل وتفتش كل ركن فى القرية بحثًا عن مكان هذا المسخ ..

هنا فوجئت به يمسك بالحديد .. يتسلق البوابة بسهولة تامة برغم ضخامة حجمه ..

إنه قادم لى !

تراجعت .. وفى اللحظة التالية وجدته أمامى ..

كان أضخم مما تصورت ..

تراجعت للخلف أكثر وقلت له آمرًا :

ـ « ابتعد من هنا .. لا أريد أن أؤذيك .. »

ـ « بـ .. ى .. و .. مـ .. ى .. ى ! »

هكذا لم يترك لى الخيار ..

رفعت الرفش وجعلته فى وضع شبيه بالرمح وصوبت به ضربة عاتية بين ضلوع هذا الشىء ..

صرخ صرخة حيوانية .. ثم سقط على ركبتيه والدم يسيل من صدره .. إنه يموت ..

لم أرد أن أترك شيئًا للظروف .. لذا صوبت الرفش ثانية وسددت طعنة أخرى فى بطنه .. فليغفر الله لى هذه القسوة . أنا خائف ..

هذه المرة لم يتهاو للمرة الأخيرة كما توقعت ..

رأيته ينهض فى نشاط .. أين ذهب الدم الذى يسيل من صدره .. أين جرح بطنه ؟

ـ « بـ .. ى .. و .. مـ .. ى .. ى ! »

ووثب فوقى فشعرت بأن هناك من فجر جبلاً بالديناميت ليسقط فوقى ..

وجهه على بعد سنتيمترات منى وهو يلعق شفته السفلى بلسانه فى اشتهاء .. رائحة أنفاسه هى بالضبط رائحة كل الوحوش التى لا تأكل إلا اللحم ..

هنا فقط عرفت أنه ليس مجرد آكل لحوم بشر .. إنه غول حقيقى من غيلان الأساطير ..

تحكى الأساطير كيف أن ضربة واحدة بالسيف تقتل الغول .. لكنك لو تحمست ووجهت الضربة الثانية فإنه يصحو ويتعافى من كل جروحه !

أنا ارتكبت هذا الخطأ بسبب الحماس الزائد ..

لكن لا وقت للندم ..

- « بـ .. ى .. و .. هـ .. ى .. ى ! »

H

الخرائب لها طابع يونانى لا شك فيه ..

أعرف هذا الطابع الرهيب .. لكنى - أعترف - لا أشعر بالخوف لأن الثامنة صباحًا ليست بالوقت الذى يولد الخيالات المرعبة ..

صحيح أن موعد نومى قد جاء، لكن من المستحيل أن تظفر بشىء من النوم هنا .. لا توجد أرض مستوية فى أى مكان .. ربما أنهى جولتى وأعود إلى الفندق ..

كنت وحيدًا .. من الغريب أن أجوب هذا المكان وحدى، لكن الأخ (لوكيريو) اختار لى هذا ..

تحسست جيبى ..

المسدس معى .. لم أعتد حمله لكن ثقله المطمئن يريحنى ..

أسمع صوت البكاء المكتوم .. آه ه ! .. كل القصص المخيفة تبدأ ببكاء مكتوم ..

برغم التوجس مشيت إلى مصدر الصوت .. كان هنالك خلف عمود إغريقى مهدم .. ثمة عمود سقط بالعرض مما جعله أقرب إلى منضدة يجلس عليها ..

فى حياتى لم أر متسولاً أسن من هذا ولا أسوأ حالاً...

رآنى فبدا عليه الذعر وتهيأ لينهض ، لكنى أشرت له كى يظل حيث هو ..

قلت له بالإنجليزية :

ـ « أنا (رفعت إسماعيل) .. من أنت ؟ »

قال من فم بلا أسنان :

ـ « أنا (فينيوس) .. هل معك شىء يؤكل ؟ »

مددت يدى أبحث فى جيبى فلم أجد شيئًا .. معى بعض العملات ، لذا أخرجت له بعضها .. صاح وهو يدق العمود بعنف وعصبية :

ـ « لا .. لا .. أريد طعامًا ! »

ـ « لكنك تستطيع شراء ما تريد بالمال بسهولة ؟ »

ـ « لا أستطيع الذهاب لشراء شىء .. فقط أريد طعامًا .. يمكنك أن تبتاع لى بعضه .. »

هززت رأسى ..

أحيانًا يكون للمتسولين منطق عجيب أقرب إلى الطفولة ..

سألته وأنا أضع العملات فى جيبى :

ـ « ماذا تفعل هنا ؟ »

ـ « أبحث عن شىء آكله .. »

ـ « هل تسكن فى هذه الجزيرة ؟ »

حك شعره المليء بالقمل حتمًا وقال :

ـ « نعم .. ليس لى مكان آخر .. عندما تغضب ذوى النفوذ يكون عليك أن تدفع الثمن .. لا أستطيع أن أفسر أكثر .. فقط ما أستطيع قوله هو أن وضعى صعب جدًا وأننى أعانى .. أنا بحاجة للحماية .. »

ثم مد يده يتحسس جيبى فى وقاحة وهو يردد :

ـ « لكنى أعرف أن معك ما يؤكل .. بالتأكيد .. »

لا أطيق أى اختراق للحماية الفيزيائية حول جسدى .. هذا يعد تبسطًا لا أتحمله .. لذا صحت محتجًا وتراجعت .. فجأة أدركت أنه ليس متسولاً فقط بل هو نشال كذلك ..

كان يحمل المسدس فى يده وقد بدا كأنه وجد كنزًا ..

صحت فيه وأنا أتقهقر :

ـ « اسمع يا والدى .. هذا المسدس محشو .. لا أرى ما يدعو لأن تمسكه بيدك .. يقولون عندنا فى العربية (السلاح يطول) .. وهذا معناه أن القتل الخطأ ..... »

لكنه صوب المسدس نحوى .. وقال وفمه يرتجف كأنه جن فجأة :

ـ « اسمع .. سوف آخذ هذا .. أى إننى أستعمل المسدس من أجل الاستيلاء على المسدس ! سوف تبتعد فى هدوء كشاب مهذب وتتركنى أدافع عن نفسى .. »

ـ « تدافع عن نفسك ضد ماذا ؟ أنت مخبول تمامًا .. »

صوب المسدس نحو رأسى وازدادت ضحكته وحشية وقال :

ـ « المخبول هو من يتهم واحدًا مسلحًا بأنه مخبول .. »

كنت أعرف أنه لن يطلق الرصاص .. هذه ليست ملامح قاتل .. برغم هذا هى ملامح شخص يائس .. اليائسون يطلقون الرصاص أكثر من سواهم ..

هكذا فردت ذراعى مطالبًا إياه أن يهدأ ..

ورحت أتراجع بظهرى ..

أتراجع وعينى لا تفارق عينيه ..

أخيرًا تواريت عن ناظريه ..

يمكننى الآن أن أفر وأطلب الشرطة .. لكن قوة ما ظلت تبقينى حيث أنا ..

أردت أن أظل قريبًا لأعرف ما يحدث فعلاً .. لماذا سرق مسدسى ؟ لو كان يريد السطو المسلح لكنت أنا أول عملائه ..

هكذا رحت أزحف بين الأعمدة المتداعية .. أزحف ..

هنا سمعت أول طلقة ..

ارتجت لها الخرائب وسمعت صرخة غير آدمية .. صرخة مروعة كأنها صرخة غراب عملاق ..

طلقة أخرى ..

ما الذى يقتله ؟ أعتقد أن هناك وحوشًا أو حيوانات ما .. هذه الأصوات ليست بشرية ..

رائحة البارود فى هواء الصباح النقى .. أقترب أكثر وأنا أزحف على بطنى .. أختلس النظر إلى حيث كان العجوز ..

كان الرجل يجلس أمام العمود الذى اتخذه كمنضدة .. لكن العمود امتلأ بقطع اللحم والجبن والخبز والفاكهة .. هذا الرجل كان يخفى الكثير من الطعام ، فما قيمة هذه التمثيلية التى كان يستجدينى بها ؟ سلوك المستولين واحد فى كل مكان وزمان وهو خداعك ..

لكنى رأيت أمامه ـ على بعد مترين ـ شيئًا غريبًا ..

كان كائنًا أقرب إلى امرأة .. لكنها كانت بجناحى وذيل طائر .. وكانت لها مخالب عملاقة .. قلت إنها تبدو كامرأة لكن أية امرأة ! لم أر قط كائنًا بهذه البشاعة وهذا القبح .. وحتى من مكانى أدركت أن رائحتها الكريهة تزكم الأنفاس ...

كانت تحلق على ارتفاع متر من الأرض تحاول الدنو منه ، لكنه أطلق عليها طلقة رصاص أخرى فصرخت تلك الصرخة المريعة وسقطت تتشحط فى دمها ، بينما جناحاها لا يكفان عن الاختلاج ..

أطلق العجوز صرخة ابتهاج وانقض على الطعام يفترسه وهو يضحك كالمجنون ..

أخيرًا استعدت روعى ورقدت على الأرض أستوعب ما رأيت .. حرف .. H !

أتذكر الآن الوحش اليونانى الذى كان يحمل هذه الصفات الكريهة .. الهاربى Harpy !

الكائنات القادمة من عالم الموتى (هيدس) ! .. لقد حكت الأساطير اليونانية عن عملية التعذيب التى مارستها ضد الملك (فينيوس) حينما حرمته من الطعام .. سواء بخطف الطعام من يده ، أو بتلويثه .. حتى أنقذه (جيسون) ومحاربوه من (الأرجونوتس) ..

لقد رأيت الآن هذا المشهد حرفيًا فيما عدا أن الهاربى ماتت بالرصاص ..

أسطورة يونانية رهيبة أخرى تحدث فى عصرنا ..

استدرت لأفر من هذا المكان المخيف .. تعثرت كثيرًا وسط الأحجار والأعمدة .. ثم رأيت الظل فوق رأسى .. شممت الرائحة الكريهة قبل أن أرى أى شىء ...

رفعت عينى لأرى ذلك الكائن المجنح القذر يهبط ليقف أمامى .. الأنياب والمخالب كلها تتجه نحوى أنا ..

وليس المسدس معى بل مع هذا الأخ الجائع (فينيوس) ..

تذكرت أن الهاربى كن ثلاث أخوات .. (أليو) و(سيلانو) و(أوسيبتى) ... نسيت أن هناك اثنتين ما زالتا حيتين ..

تذكرت كذلك أن مهمتهن الرئيسة لم تكن تجويع الملك (فينيوس) ..

لقد جئن من عالم الموتى كى يخطفن هؤلاء الحمقى العنيدين الذين يرفضون أن يموتوا !!

بعبارة أخرى : كن يقتلن البشر الذين لا يقبلون فكرة الموت ..

* * *

I

إنها التاسعة صباحًا ..

جلست فى صبر أنتظر ذلك المسخ الذى يبدأ اسمه بحرف I ..

ترى ما هو .. أمسكت ورقة وقلمًا ورحت أعد الظواهر الغامضة أو المسوخ التى أعرفها وتبدأ بهذا الحرف :

Incubus

Ishtar

Isnashi

I Chin

Ikimizi

Illuminati

Ibis

Iblees

Icarus

على كل حال ، معظم هذه الكائنات من قائمة (القرد ــ الإنسان) إياها .. لكن ضع ألف علامة استفهام تحت Incubus .. الجاثوم ..

هل هو المقصود هنا ؟

أم هل هو إبليس ؟ لا أعتقد أن (إيكاروس) مسخ حتى لو وجدته أمامى الآن ..

الـ Illuminati لفظة تتعلق بمنظمة ماسونية غامضة فى بافاريا ، كانت تضم من يفوق ذكاؤهم ذكاء البشر العاديين .. ربما كان هذا هو المقصود ..

لقد مرت الساعة تقريبًا ولم يحدث شىء ..

أعتقد أن الأخ (لوكيريو) لم يحب أيًا من هذه الكوابيس .. يبدو أنه غير رائق المزاج أو يتناول إفطاره الآن ..

ربما كان على أن أنتظر حتى العاشرة صباحًا لأعرف كنه الكابوس الجديد

* * *

J

ولكن ما هو الخطر الذى يمكن أن يهاجمك فى العاشرة صباحًا ؟

لا شىء فى الواقع ..

أنت فى (إيست إند) فى لندن .. جئت تبحث عن عنوان ما فلم تجده .. لا أحد يوجد فى عنوانه هذه الأيام ..

أنت منهك .. لم تتناول الإفطار بعد ولكنك تجد تلك الكافتيريا الصغيرة فتدخل ..

تأتى الساقية الحسناء ذات الجمال البريطانى الذى يفتنك .. أنت المجنون الوحيد فى العالم الذى يؤمن بأن البريطانيات جميلات ، وأن الأمريكيات قبيحات كسحال مسلوخة ..

تطلب منها طبقًا من البيض وقهوة .. وتجلس فى ضوء الشمس المتسرّب من الواجهة الزجاجية تطالع الجريدة ..

يصل الإفطار الشهى ومعه الخبز المقدد ، وتبدأ عصارتك المعدية عملية الهضم فعلاً قبل أن يصلها شىء من الطعام ..

هنا يدخل ذلك العملاق الكافتيريا .. ينظر حوله ثم يتجه للمنضدة المجاورة لك .. إنه أشقر يبدو أجنبيًا .. معه حقيبة كبيرة والمعطف على ساعده ..

يصيح مناديًا الساقية :

ـ « باجالوستا !!.. باجالوستا ! »

تنظر له فى عدم فهم فأقول لها :

ـ « يقول (من فضلك) .. واضح أنه روسى .. »

تدنو منه لكنه يملك من الإنجليزية ما يسمح له بشرح ما يريد .. كأن الكلمة الإنجليزية الوحيدة التى استعصت عليه هى لفظة (من فضلك) ..

تغيب الفتاة ثم تعود له بطبق ملىء باللحم .. وخبز وبيض .. هذا وحش مسعور إذن .. وشهيته لا تقل عن حجمه ..

يأكل طعامه بشهية طيبة ، بينما أمضغ الخبز فى رقى .. أشعر بأننى من الأسرة المالكة عندما أنظر لهذا الرجل ..

ينتهى من طعامه فينهض ويتجه إلى مائدتى وحقيبته فى يده ..

لا .. لا تجلس .. لا أريد بشرًا من حولى !

لكنه يجلس بالفعل معلنًا عن انعدام لياقة لا يوصف ..

يقول لى بأسوأ إنجليزية سمعتها فى حياتى :

ـ « (ميشيل أوستروج) .. سوفييتى .. أنا طبيب .. »

لم أقدم له نفسى على سبيل الاحتجاج .. هل سيطلب منى دفع الحساب أم ماذا ؟

لكنه لم يفعل .. فقط أخرج منديلاً عملاقًا وراح يجفف عرقه ، ثم قال لى :

ـ « أنا متجه إلى مطار (هيثرو) .. لقد حان وقت العودة إلى الوطن .. »

ثم أضاف وقد لاحظ أنى غير مهتم :

ـ « الحقيقة إن المرء يشعر بالرضا عندما ينجز ما هو مطلوب منه .. إنه ذلك النداء الذى تشعر بأنه آت من جدودك .. تشعر بأنهم لن يستريحوا ما لم تقم بالمهمة .. هل جربت هذا الشعور من قبل ؟ »

قلت فى برود :

ـ « لا .. »

ـ « لو جربت لذة الإنجاز لشعرت بخليط من المشاعر الموجبة .. هل تؤمن بتناسخ الأرواح ؟ »

قلت فى برود من جديد :

ـ « لا .. »

ـ « كيف لا يؤمن بها إنسان عاقل ؟ »

قلت وأنا أقلب قهوتى :

ـ « أنا مسلم .. كلا الإسلام والمسيحية لا يقبلان فكرة أن نفس الروح تُستخدم عدة مرات .. هذه الفكرة تتناقض مع مسلمات كثيرة .. »

قال لى فى توتر :

ـ « ولماذا إذن أدرك يقينًا أننى كنت هنا منذ زمن سحيق وأننى فعلت الشىء ذاته بالضبط .. من أين تأتى هذه الرؤى ؟ »

ـ « العلم الحديث لا يتكلم عن تناسخ الأرواح لكنه يقبل فكرة الوجدان الجمعى .. يقبل فكرة الـ déjà vu .. يقبل الهلوسة والهستيريا .. »

هز رأسه فى حيرة .. ثم قال :

ـ « ما زلت أشعر أننى قابلت (كوزمينسكى) و (درويت) .. ما زلت أرى كل شىء .. هذا غريب فعلاً .. »

ـ « سوف تتغلب على هذا .. »

مد يده ورشف آخر ما تبقى فى قدح القهوة الخاص بى ونهض محييًا ..

جاءت الساقية بعد خمس دقائق فأشرق وجهها الجميل بالفهم وقالت :

ـ « مجرد مجنون آخر ؟ »

ـ « نعم .. »

قالت بتلك الكبرياء البريطانية المزعجة :

ـ « هؤلاء الأجانب مجانين دومًا .. آسفة إن آذيتك بهذه الكلمات لكنها الحقيقة .. أنت الاستثناء الذى يؤكد القاعدة .. »

اصطدمت قدمها بشىء فانحنت تعيده جانبًا وقالت :

ـ « لا تنس حقيبتك .. »

حقيبتى ؟؟ أنا لا أحمل حقيبة .. هى حقيبة ذلك المجنون .. وهو الآن فى طريقه لمطار (هيثرو) فلن ألحق به.. لكن يمكننى أن أسلمها للشرطة على كل حال ..

(أوستروج) .. هذا الاسم يبدو مألوفًا ...

لو أضفنا له اسم (كوزمينسكى) لاقتربنا جدًا ..

وهنا ارتجفت .. مددت يدى إلى الحقيبة وفتحتها فى حذر .. وهنا شعرت بأن كل ما أكلته فى الإفطار يحتشد فى فمى .. لم يكن ما تحويه الحقيبة أوراقًا .. لم تكن تحوى مخدرات .. ليتها كانت كذلك !

* * *

فى تلك الأشهر من أغسطس حتى نوفمبر عام 1888 شهدت هذه المنطقة بالذات ـ (إيست إند) ـ سلسلة جرائم قتل شنيعة للفتيات .. وهذه الجرائم أطاحت برءوس كثيرة من شرطة لندن بتهمة الفشل ..

لغز من أشهر ألغاز علم الجريمة .. اللغز الذى اشتهر باسم (جاك السفاح) ..

الساعة الآن العاشرة صباحًا .. موعدى مع حرف J .. وهذا يعنى أن نظريتى صحيحة ..

لقد كان هذا السفاح يذبح ضحاياه ثم يقوم بتشريحهن بطريقة تدل على شخص ذى علم واضح بالتشريح .. لهذا فكر الجميع فى طبيب يفعل ذلك ..

اتهموا روسيا يدعى (ميشيل أوستروج) وبولنديًا يدعى (كوزمينسكى) ومن يدعى (درويت) .. ثم ظهرت نظرية تتهم الجراح الملكى سير (ويليام جال) ذاته بهذه الجريمة .. والسبب نوع من الطقوس الماسونية ..

حتى اليوم يبقى اللغز لغزًا ..

لكن هذا الأخ جاء وقال كلامًا كثيرًا عن التناسخ والحاجة إلى أن يصير مثل أجداده .. وما الذى امتلأت به حقيبته ؟ هل قضى ليلته يمارس ذات النشاط الذى كان جده يمارسه ..

هل يعنى هذا أننى تناولت إفطارى مع (جاك السفاح) ؟

كنت أفكر فى هذا كله عندما سمعت صرخة ..

رفعت رأسى لأجد الساقية الحسناء تعوى وهى تنظر إلى الحقيبة الموضوعة على الأرض جوارى ..

لقد بدأت بقعة كبيرة تتكون على الأرض .. بقعة دم تكبر وتكبر ..

رفعت رأسى لأتكلم ..

لكنى وجدت الناس تزاحموا خارج الباب ..

ورأيت عند المدخل رجل شرطة بريطانيًا يلوح بهراوته ، ويصيح فى حزم ممزوج بالرعب :

- « لا تتحرك ! »

طبعًا لن أتحرك ..

من قال إننى قادر على ذلك ؟

* * *

K

الحادية عشرة صباحًا ..

هناك أكثر من طريقة لكتابة كلمة (قبالة) .. ربما تكتبها هكذا Kabbalah أو هكذا Qabbalah .. أو تبدأ بحرف C .. لكننا نتكلم عن الشيء ذاته ..

معنى الكلمة هو (من الفم إلى الأذن) واللفظة تحمل معنى (الاستقبال) عامة .. إنها تلك الطقوس السحرية ذات الطابع اليهودى ، قيل عند اليهود إن الله همس بها لموسى عليه السلام فعلمها لهارون أخيه. يعتقد اليهود أن القبالة تحوى سر الحياة ذاتها . فى أسطورة أخرى قيل إن القبالة علم نقله هاروت وماروت لأهل بابل. محظور على أي يهودى أن يدرس القبالة قبل بلوغ الثلاثين وهى أساس التصوف الدينى عند اليهود .

تقوم هذه الفلسفة على أن الله أرسل فى الفراغ نفحة من نفحاته النورانية ، بلغت 10 نفحات ، وسميت هذه النفحات بالسفروت Sephirot. هناك عدة كتب للقبالة منها (سفر يتزيراه) أو (كتاب الخلق) الذى كتب أثناء الشتات البابلى . والثانى يدعى (زوهار)

ـ كتاب النورانية ـ وكتب فى أسبانيا بوساطة الفيلسوف موسى بن ليون عام 1219 ، وقد انتشر هذا الكتاب فى أوروبا. إنه كتاب رياضى تمامًا ملىء بالأرقام ، وعامة نجد أن القبالة تتعامل مع ثلاثة نظم من الأرقام تدعى (جيماتريا) و(نوتاريكون) و(نيموراه) ..

تقوم فلسفة القبالة على شجرة أصلها فى السماء وفروعها فى الأرض (أى أنها مقلوبة) وتتكون من عشر طبقات يتاح السفر بينها للروح بعد الموت.

إن القبالة لم تكن قط كتابًا للسحر ، إلا أن السحر تسلل إليها ، واعتقد هؤلاء السحرة أن السفر عبر طبقات القبالة يمكن أن يتم وأنت حى . بهذا يمكن للمرء التنقل بين الطبقات واكتساب خواصها والتصرف بها كما يشاء. هكذا صارت القبالة هى العمود الفقرى لأية ممارسات سحرية ، وصارت للساحر ثياب خاصة وممارسات خاصة تتناسب مع الطبقة التى يريد المرور بها .

* * *

تراهم فى (نيويورك) بثيابهم السود الغريبة وقبعاتهم وزنار الشعر المضفر على الكتفين .. إنهم يهود (الحسيديم) الذين يقيمون فى حى مخصص لهم هناك .. حياتهم مغلقة وعاداتهم مبهمة لا تعرف عنهم الكثير ، لكنهم أشد اليهود تعصبًا ..

من الغريب أن هؤلاء بالذات لا يقبلون فكرة إسرائيل .. ويعتبرونها مخالفة صريحة للديانة اليهودية ، لأنها تقضى على فكرة الشتات .. يمكنك أن تعرف المزيد عن هذا من كتابات د. (عبد الوهاب المسيرى) خبير اليهودية الأول فى العالم العربى ، وهو تخصص مثير للإعجاب لأن السبيل لسحق عدوك يبدأ من معرفته بدقة ..

لكن هذا ليس موضوعنا بالطبع ..

كنت بطبعى أتحاشى التعامل مع هؤلاء .. وهى مهمة سهلة لأنهم مجتمع مغلق بالمعنى الحرفى للكلمة ..

على أننى كنت بالطبع أتعامل مع النصاب اليهودى مريض البروستاتا (سام كولبى) ، وهو لا ينتمى لليهودية إلا بالاسم ..

أذكر ذلك اليوم الذى جاءنى فيه (كولبى) ملهوفًا فى الفندق الذى أقيم فيه ..

ناولنى مجموعة من الأوراق فى كيس بلاستيكى وطلب منى أن أحتفظ بها ..

كنت قد سئمت تلك الكتب السرية التى يتعامل معها ، لذا قلت له إننى غير راغب فى ذلك .. لكنه قال إن حياته تعتمد على احتفاظى بها ..

ـ « رفعت .. أنا فى مأزق .. أرجوك .. لنقل إننى اقتربت جدًا من شىء لا ينبغى الاقتراب منه .. »

ثم همس وهو يضع الكيس تحت حشية فراشى :

ـ « لا تحاول قراءة المكتوب .. أرجوك .. »

ثم انصرف ..

طبعًا كانت هذه دعوة واضحة لقراءة الموجود فى الأوراق ..

هكذا انتظرت حتى توارى ، وأغلقت الغرفة بإحكام ثم مددت يدى أعبث فى أوراق الكيس ..

وجدت على الغلاف عبارة بالعبرية .. ذكرتنى بجو (نيكرونوميكون) و(إينوخ) الكابوسى .. لابد أن (ناثان غزة) له دور فى الموضوع ..

تحت العبارة كتبت كلمة (تتراجراماتون) .. Tetragrammaton ما معناها ؟ شىء رباعى طبعًا لكن ما هو ؟

الفضول يخنقنى لمعرفة معنى هذا الشىء ..

هكذا أغلقت غرفتى بعناية وغادرت الفندق ..

إن المكتبة العامة تقع على بعد مائتى متر من الفندق ..

أمينة المكتبة تدعى (سارة) وهى فتاة رقيقة جميلة ومتعاونة بشدة .. لقد كنت هناك عدة مرات من قبل .. لو طلبت منها كتاب (يقسكقغمعى) لوجدته لك أو أخبرتك بطريقة الحصول عليه ..

حييتها فقالت لى إن اليوم جميل ..

- « ليس أجمل من ضحكتك يا (سارة) الحسناء .. هناك سؤال أرجو لو ساعدتنى فى حله .. »

ثم أخرجت من جيبى وريقة وتلوت ما فيها بصوت عال :

- « تتراجراماتون .. هل تعرفين معناها ؟ »

- « ما هى المناسبة ؟ »

قلت فى حذر :

- « لنقل إن لدى كتابًا يحمل هذا العنوان .. »

فكرت قليلاً ثم قالت :

- « يجب أن تبحث فى كتب القبالة .. لو عدت بعد الظهر لوجدت عندى بعض الكتب التى تناسبك .. هناك كتاب (حديقة الرمان) لـ (موسى كوردوفيرو) .. »

- « هذا اسم ذو رنين أسبانى واضح .. »

- « كل ما نعرف عن القبالة جاء من أسبانيا .. لقد تشكل هذا العلم فى أسبانيا عندما بدأ رجال محاكم التفتيش يضطهدون اليهود .. »

هذه نقطة يجب أن يتذكرها اليهود .. كانوا من السادة عندما حكم المسلمون أسبانيا .. ثم رحل المسلمون فعانوا أشنع أنواع

الاضطهاد على أيدى محاكم التفتيش .. هذه حقيقة تاريخية وليست مجرد حماس قبلى ..

هكذا تركت (سارة) شاكرًا لها لطفها ومعرفتها الموسوعية ..

اتجهت إلى سوبر ماركت فابتعت بعض ما أحتاج إليه .. مشيت فى السوق بعض الوقت ، ثم عدت إلى الفندق .. دخلت غرفتى وبدأت فى نزع ثيابى ..

لا أعرف كيف ولا متى تلقيت تلك الضربة على مؤخرة رأسى ..

فجأة ساد الظلام العالم ..

* * *

كنت هناك على الأرض المبتلة فى قبو ما ..

مشاعل وشموع ..

حولى يقف مجموعة من هؤلاء (الحسيديم) بسحناتهم الكريهة الكئيبة وثيابهم السود ..

قال أحدهم :

- « لقد أفاق الجنتيل ! »

الجنتيل هو كل من يمت لشعوب الأرض غير اليهودية .. ورأيت أحد هؤلاء ينحنى على ركبتيه ليصير فى مستوى رأسى .. ثم وضع يده تحت ذقنى وهمس :

ـ « أنت ارتكبت الكفر الأعظم ! »

ـ « أى كفر ؟ »

ـ « نطقت الاسم السرى .. الـ (تتراجراماتون) .. »

ـ « عم تتكلم بالضبط ؟ »

ـ « إن ذكر اسم الرب السرى يقع تحت طائلة الموت ، ونحـن نؤمن أن من يعرف هذا الاسم يستطيع السيطرة على شياطين الكون وعلـى العـالم السفلى .. لهذا نستعمل أسماء (إلوهيم) و(جيهوفـاه) كـى لا ننطق الاسم الأصلـى .. أنـت تملـك هـذه الأوراق وقد حصلت عليها من كافر ما .. كافر له علاقة بأسـرار القبالة .. »

ماذا يدور هنا ؟

هنا رفعت رأسى فرأيت ساقى (سارة) .. أمينـة المكتبـة .. صديقتى ..

قالت وهى تبتسم فى وحشية :

ـ « تنسى أن اسمى (سارة مازورسكى) .. لـو لـم يكن هذا الاسم يهوديًا فماذا عساه أن يكون ؟ »

قال الرجل الذى يركع جوارى :

ـ « سارة أخت مخلصة . صحيح أنها ليست من (الحسيديم) لكنهـا يهوديـة .. وبالتـأكيد لـن تـترك كلبًـا مثلـك يلهـو بالاسـم المقدس .. »

ومد يده يخرج شيئًا ما ..

ـ « لقد حكم عليك بالموت .. »

كان هذا الشىء سكينًا ضخمًا يلمع فى ضوء الشموع ..

أنا سأموت لأنهم يعتقدون أننى أعرف الـ (تتراجراماتون) ..

هل تعرف ما هو من فضلك ؟

* * *

L

جارتى (ليلى) وزوجها (عبد العظيم) يسكنان فى الشقة التى تعلو شقتى .. لقد جاءا منذ وقت قريب إلى البناية .. وبما أننى أمقت البشر كما تعرفون عنى فإنى لم أهتم بمعرفة أى شىء عنهما ..

فقط هى بارعة الحسن .. ذلك الطراز من الجمال الذى يزهق أنفاسك .. ومع الجمال تجد مسحة لا شك فيها من القسوة والصلابة .. إنها نمط الفنانة (ليلى فوزى) عندما كانت تلعب أدوار الشر فى الأفلام المصرية القديمة .. فاتنة .. قاسية .. باردة .. ساحرة ..

زوجها كان رجلاً مسالمًا وإن كان مكتنز العضلات .. ويبدو أنهما لم ينجبا قط ..

كنت أقابلهما على الدرج أو فى مدخل البناية فأهز رأسى مستمتعًا بما يعرفه الغربيون بـ (معرفة هز الرأس) .. لا علاقة بعدها .. كل شىء ينتهى بهزة الرأس هذه ..

فى عدة مرات جاءنى الزوج يبغى تعرفى أكثر ، فكنت أقابله ببرود ومسحة غباء .. بعدها كنت لا أفتح الباب إذا دقه لأننى أراه فى العين السحرية ..

مرت عدة أشهر ثم حدث موقف غريب ..

لقد جاءت قوات أمن وضابط شاب وسيم ، وقاموا بالتفتيش فى شقة هذين ثم اصطحبوهما إلى المخفر مع مجموعة كبيرة من الكتب والأوراق ..

سألت الأستاذ (زكريا) جارى فى الشقة السفلى ، وكنت أعرف أنه فضولى جدًا لا يفوت أية تفاصيل .. بالتأكيد عرف كل شىء عن قصة التفتيش هذه ..

قال لى :

ـ « يقولون إنهما جاسوسان إسرائيليان ! »

ـ « يا سلام ! .. بهذه البساطة ؟ »

نظر حوله كى يتأكد من أن أحدًا لا يسمعه وهمس :

ـ « بس س ! أنا من أبلغ الشرطة بهذا ! السبب هو أننى فحصت صندوق القمامة الخاص بهما .. وجدت أوراقًا كثيرة ممزقة عليها كتابة عبرية .. »

سئمت هذا الغباء .. هل كل من يتعامل مع اللغة العبرية جاسوس ؟ فى إسرائيل خبراء فى اللغة العربية والفقه الإسلامى والشعر الجاهلى، ولهذا سحقونا فى حرب 1967 لأنهم عرفوا عدوهم جيدًا ..

قلت للرجل :

ـ « هناك من يدرسون اللغة العبرية .. فهل هم جميعًا جواسيس ؟ »

ـ « الرجل لا يدرس أية لغة .. إنه رجل أعمال .. »

على كل حال حدث مـا توقعتـه .. عـاد الزوجـان بعد مـا تبين رجال الشرطة أنه لا غبار عليهما .. عادا لكنهما فقدا أية شـهية لتكوين صداقات مع سكان هذه البناية .. لا ألومهما طبعًا ..

* * *

بدأ مسلسل موت أطفال البناية بعد هذا بأسبوع ..

كانت الحالة الأولى لطفل جميل فى الخامسة من عمره وجـدوه ميتًا فى فراشه ، ولم يعرف الطبيب الشرعى سببًا لذلـك.. لمـاذا مـات وهو يضحك ؟ الحق أن موتـه أحـدث حالـة مـن الشـؤم والحزن عمت البناية كلها ..

الحالة الثانية وقعت بعد أسبوع لطفلة فى الثانية من عمرها .. تركتها أمها فى غرفتها نائمة ، وخرجت لبعض شأنها ثم عـادت لتجدها ميتة .. وعلى شفتيها ابتسامة ..

يعرف الأطباء فى العالم الغربى ما يدعى بمتلازمـة (مـوت الأطفال المفاجئ) أو SID وهو لغز طبى غير مفهوم ، يقال أحيانـا أن سببه فيروس تنفسى أو إنهاك حرارى ، أو وضع الطفل على بطنـه وتركـه حيث تكون عضلات تنفسه فى أسوأ وضع ممكن .. لكنـه مـرض سائد فى الغرب وغير معروف فى مصر على قدر علمى ..

لهذا تشاءم الجميع من هذه البنايـة .. شـعر الجميـع بالشـؤم يخيم عليها ..

على أن شكوكى بدأت فى ذلك اليوم الذى كنت أصعد فيـه الـدرج ورفعت رأسى لأجد أن المرأة فى طابق يعلونـى .. أغضيت ببصرى حياء لكن عينى رأت لمحـة سريعة من ساقيها هـى التـى كـانت تلبس ثيابًا طويلة طيلة الوقت .. هذه اللمحة جعلتنى أرتجف ..

إنها امرأة رقيقة بارعة الحسن ، فهل لديك سبب واضح يجعل ساقيها مكسوتين بالشعر كأنهما ساقا غوريلا ؟

هنا فقط بدأت أقلق ..

طلبت من الأستاذ زكريا أن يجد لـى بعض الأوراق العبريـة التى وجدها فى قمامة هذين .. فتش طويلاً حتى وجد ورقتين فى ألعن حالة ممكنة .. عندما تخرج الورقة من القمامة لا تتوقع أن تكون فى حالة أفضل ..

حملت الورقة إلى الألسن كى أجـد مـن يترجمهـا لـى فـى قسم الدراسات العبرية ..

هناك عرفت أنها صلوات موجهة إلى (ليليث) كى تكفى العالم شرورها !

* * *

لاميا .. لاماستو .. ليليث .. الأخوات إمبوسى .. كلهن الشيء ذاته . فى كل الثقافات السامية سوف تجد ذلك النموذج .. إنها موجودة فى الأساطير البابلية .. الأشورية .. العربية .. العبرية .. الأنثى مصاصة الدماء التى حرمت الأطفال فقررت أن تنتقم من أطفال الأخريات .. فى اليونانية تجد كلامًا عن (لاميا) الرهيبة التى كانت ملكة ليبيا .. عند الأشوريين كانت هناك الشيطانة (لاماستو) التى تقتل الأطفال الصغار ربما وهم فى أرحام أمهاتهم .. فيما مضى كانوا يفسرون أكثر حالات موت الأطفال والإجهاض بأن (لاماستو) تتسلل لتفتك بالطفل ..

لهذا كانوا يرسمون فى غرفة نوم الطفل دائرة بداخلها آدم وحواء .. وكانوا يكتبون على الجدران : اخرجى يا ليليث .. مع كلمات تبعدها عن الطفل مثل (سينوى) و(سانسينوى) . قيل إن الطفل لو ضحك فى نومه فالسبب هو أن (ليليث) فى الغرفة .. وكان عليك أن تضرب شفتيه بإصبعك لتطردها .

يقال أحيانًا إن اسم (ليليث) مستوحى من اسم (ليليتو) - روح الريح - أو ليلاك التى تعنى (الليل) فى المخطوطات السومرية فى (أور) .. وكانت هناك مواجهة مهمة بينها وبين (جلجاميش) عندما كانت تختبئ فى شجرة الصفصاف على ضفة نهر الفرات .. وقيل إنها تعيش فى الخرائب وسط بنات آوى والبوم والثعابين .. يعتقد اليهود أن (ليليث) هى الأنثى الأولى - قبل حواء - التى رفضت أن تخضع لسلطة آدم .. قررت أن تتمرد عليه من ثم عوقبت

بأن صارت هذا المسخ ، وهناك اليوم جمعيات نسائية عديدة فى إسرائيل ترفض سلطة الرجل وتعتقد أن الوقت قد حان للخلاص منه ، وشعار هذه الجمعيات هو (ليليث) نفسها !

كذلك يعتقد اليهود أن سيدنا (سليمان) عليه السلام شك فى (بلقيس) ملكة سبأ عندما رأى أن ساقيها مشعرتان أكثر من اللازم وحسبها (ليليث) .. كان هذا حين كشفت عن ساقيها عندما خشيت أن تبتل بالماء وهى تدخل قصر البلور الذى بناه .

هناك أساطير تتحدث عن كون (ليليث) عقيمة لا تنجب ، وأساطير تتحدث عن أبنائها الأشرار مثلها الذين يطلق عليهم (ليليم) .

نسيت أن أقول إن زوجها يدعى أزيموديوس...

(ليلى) و(عبد العظيم) .. كلمات عبرية .. صلوات .. امرأة ذات ساقين مشعرتين .. أطفال البناية يموتون وهم يضحكون .. هل يمكن تصور أن هذه الشيطانة العبرية اتخذت مسكنها فى هذه البناية بالذات ، وأنها قررت الانتقام من هؤلاء الذين أبلغوا عنها الشرطة ؟

لهذا - لا تلمنى - قمت بجولة على كل شقق البناية .. لا أعرف كيف صدقت هذا كله ، ولا كيف أقنعت الجيران به .. لكنى فى كل غرفة أطفال فى كل شقة بالبناية كتبت على الجدار بخط واضح (سانسينوى) ..

حاولت أن أبقى الأمر سرًا .. لكن الجيران الذين اعتبرونى جننت تمامًا مؤخرًا تهامسوا بالأمر ..

لهذا كنت أصعد فى الدرج حينما نظرت إلى أعلى فرأيت تلك المرأة تطل علىَّ من فوق .. لو أن النظرات تقتل لقتلتنى تلك النظرة .. سرعان ما تواريت فى شقتى وأنا أرتجف ..

* * *

الثانية عشرة ظهرًا ..

لكنى نائم فى فراشى ..

أنا من الذين ينامون متأخرًا جدًا .. فى الحقيقة مبكرًا جدًا ..

سوف أستيقظ فى الثانية بعد الظهر .. هذا يجعلنى أظفر بثمان ساعات ..

لكنى أشعر بشخص ما معى فى الحجرة خافتة الإضاءة ..

أرفع عينى لأجد مدام (ليلى) تقف جوار زوجها وهما ينظران لى فى ثبات ..

متى دخلا وكيف ؟

أهب متيقظًا لأجدها تقول فى ابتسامة وحشية وهى تتقدم نحوى :

ـ « أنت منعتنا من الاعتداء على أى طفل فى البناية .. لفظة (سانسينوى) على الجدران حيلة بارعة ، لكنك نسيت أن تكتبها على جدارك ! »

قال زوجها (عبد العظيم) الذى هو فى الحقيقة (أزيموديوس) :

ـ « تنسى أنهم كانوا ينصحون الرجال بألا يناموا وحدهم فى الدار أبدًا لأن (ليليث) لم تكن تكتفى بممارسة نشاطها مع الأطفال ، بل كانت تختار أحيانًا الرجال النائمين على ظهورهم لتمتص دمهم .. »

يبدو أننا فى عالم ملىء بالشياطين التى تقتل الرجال النائمين على ظهورهم ..

كدت أقول هذا لولا أن مدام (ليلى) وثبت فوقى .. وثبة حيوانية جدًا رشيقة جدًا كأنها ذئب لا أنثى ..

فى هذه المرة يبدو أنها ستجرب مص الدماء ولن تكتفى بخنقى ..

لاميا .. لاماستو .. ليليث .. الأخوات إمبوسى ..

لا يهم ..

فقط أعرف أن هذا الشىء قوى جدًا وأنه يسحقنى ....

* * *

M

لم يلتقط له أحد صورة ..

وبرغم هذا يؤمن الكل هناك بوجوده ..

أنظر لساعتى فأجد أنها الواحدة ظهرًا .. من ثم أعرف أننى ولابد ملاقيه ..

هأنذا مع صديقى الأمريكى المتحمس دومًا الغاضب دومًا (هارى شيلدون) .. نحن فى (وست فرجينيا) ..

مدينة (بوينت بليزنت) مدينة صغيرة ، من الطراز الذى وصفه (مارك توين) قائلاً :

ـ « كل واحد وكلبه يعرف كل واحد وكلبه .. »

هدوء عام .. شوارع خالية .. بضعة أطفال يلعبون جوار البيوت فى الحدائق .. لقد سرق الأمريكان مساحات أرض شاسعة من الهنود ، أكثر مما يحتاجون له لو أردت رأيى .. لهذا هناك كلمة واحدة تصف الحياة فى هذه الولايات : الاتساع ..

نحن فى الحديقة الخلفية لدار (نويل بارتريدج) .. مزارع من البلدة أشيب الشعر لم يعد يفعل أى شىء سوى الجلوس فى الحديقة ومراقبة الطريق المقفر ..

يقول لنا بينما جهاز التسجيل يدور :

ـ « كنت قد سهرت مع (كلارا) فى تلك الليلة ، وفرغ ما لدى من شراب .. نهضت إلى المخزن فى الظلام لأحضر زجاجة أخرى .. هناك شعرت بوجود شىء ما .. رفعت عينى ببطء فرأيته .. »

قلت له :

ـ « هل هو كما وصفته للصحافة أم أنهم يبالغون ؟ »

ـ « بالضبط كما وصفوه .. فى البدء حسبته متسكعًا .. ثم أصابنى الرعب لأنه فارع الطول حقًا .. أعتقد أن طوله يقترب من عشرة أقدام (ثلاثة أمتار) .. عندما دنوت أكثر اكتشفت أنه بلا رأس ..!.. وفجأة حرك جناحين عملاقين ووجدته يرتفع أمام عينى كأنه وطواط آدمى هائل الحجم !!! رحت أصرخ كالمجنون بينما هو يرتفع ويرتفع .. وسرعان ما رأيت ظله على خلفية من قرص القمر كتلك الصورة الشهيرة للرجل الوطواط .. »

ـ « هل يبدو كبشرى ؟ »

ـ « كان الظلام شديدًا .. لكنى قدرت أنه مكسو بفراء أبيض وأن له عينين حمراوين .. عينان على جانبى صدره لأنه بلا رأس .. فيما عدا ذلك هو يمشى على قدمين .. يمكنك أن تتصور بسهولة أنه رجل .. »

ابتسمت فى سرى .. لم يقع فى الشرك .. كنت أتوقع أن أسأله عن كيفية وجود عينين فى مخلوق بلا رأس ..

أردف الرجل :

ـ « بعد هذا تكرر ظهوره .. كان هذا هو العام 1966.. كثيرون رأوه خارج ديارهم ليلاً وفى كل مرة كان يحلق مبتعدًا .. معظم من رأوه أصيبوا برعب دام معهم ، وصار من الصعب أن ترغمهم على المشى ليلاً فى طريق مقفر .. لو أردت الدقة ، هناك أكثر من مائة مشاهدة له فى تلك الفترة .. »

ثم جرع جرعة من الشراب وأشعل سيجارًا وقال :

ـ « الصحافة اهتمت بالموضوع .. ذكرهم منظره بشخصية هذا الشبح الوطواطى فى القصص المصورة ، من ثم اشتهر بهذا الاسم .. الرجل العث .. Mothman .. فيما بعد زار البلدة صحفى يدعى (جاك كيل) ودرس الظاهرة وقابل الشهود .. لقد لاحظ أن التيار الكهربى ينقطع فى البلدة عندما يظهر هذا الرجل العث .. لاحظ أن أصواتًا غريبة تسمع فى الجوار .. لاحظ أن كوارث معينة تحدث بعد ظهوره ، لذا أصدر كتابًا اسمه .. اسمه .. »

وتقلص وجهه العجوز محاولاً التذكر فقلت :

ـ « نبوءات الرجل العث . هذا هو اسم الكتاب .. »

قال مؤيدًا :

ـ « نعم . نعم .. لكن الرجل العث اختفى تمامًا منذ عام 1967 .. لم نسمع عنه أى شىء .. قال العلماء إنها هلوسة جماعية .. ربما .. عندما أعيد التمعن فى فكرة أن وطواطًا يمشى على قدمين ارتفاعه عشرة أقدام موجود فى الجوار ، أعرف أننى أهلوس .. »

سأله (هارى) وهو يضع ساقًا على ساق :

ـ « لكن البلاغات عادت منذ أيام .. »

حك العجوز رأسه وقال :

ـ « نعم .. نعم .. جاءت بلاغات كثيرة من أطفال . من نساء .. وفى كل مرة يتكرر الوصف .. أعتقد أن ذلك الفيلم التلفزيونى هو السبب(*) إن الناس يفكرون بالضبط كما تعلمهم السينما وليس العكس .. »

(★) لا يتكلم عن الفيلم الشهير الذى قام ببطولته (رتشارد جير) بل عن فيلم تلفزيونى وثائقى قديم .. تذكر إن هذه الأحداث تقع قبل التسعينات ..

رأى لا بأس به من فلاح بسيط .. قديمًا قال (أوسكار وايلد) إن الطبيعة تقلد الفنان ، وقال (أندريه موروا) إن الناس يحبون بالطريقة التى تمليها عليهم قصص الحب الرائجة فى عصرهم ! هذا ينطبق على الرعب . السينما تعلمنا كيف نخاف وما الذى ينبغى أن نخاف منه!

أغلق (هارى) جهاز التسجيل وشكر الرجل ..

خرجنا إلى الشمس الساطعة فى الخارج .. هذه القصص قد تثير الرعب إذا سمعتها ليلاً فى غرفة مظلمة باردة أو فى حقل لا ضوء فيه .. بالتأكيد سوف تتلفت حولك لدى سماع أى صوت .. أما هنا مع كل هذه الشمس والدفء فالأمر يبدو مضحكًا ..

كنت أنا و(هارى) هنا لأن صحيفة أمريكية صغيرة تهتم بالظواهر الفورتية Fortean طلبت من (هارى) أن يكتب لها دراسة عن ظاهرة رجل العث التى عادت .. طبعًا سمعة (هارى) تنامت فى هذا الصدد بعد مغامرتنا مع الزومبى وبعد عدة قصص مماثلة ..

إنه خبير كمبيوتر ولا علاقة له بهذه الأمور ، لكن ما علاقتى أنا كأستاذ أمراض دم بها ؟ لقد طلب منى أن أرافقه بما أننى فى الولايات ، وقد وافقت على الفور .. (هارى) يقبل أن يصحبنى فى أى مكان أطلبه .. على أن أرد له هذا الجميل ..

قلت له :

ـ « لا جديد .. ما لم تلتقط فيلمًا كاملاً لرجل العث هذا فلن يصدقك أحد . ولسوف يظهر خبير من شركة (سونى) يفحص شريط الفيديو ويؤكد أنه مزيف .. »

قال ضاحكًا :

ـ « الشيك الذى سأناله من المجلة .. هذا هو ما يهمنى حاليًا .. يجب أن أنفق لأعيش كما تعلم .. »

هكذا مشينا فى البلدة الهادئة .. هناك شاهدان نقابلهما وتنتهى قصتنا هنا ..

كانت محطة الوقود هى المكان الذى حملتنا أقدامنا له .. هناك شاحنة عملاقة يبدو أنها تفرغ حمولتها من وقود الآن.. سيارتنا تقف فى ساحة انتظار على بعد خطوات .

قلت لـ (هارى) وأنا أتثاءب :

ـ « اسمع .. يمكنك إنهاء اللقاءين الأخيرين من غيرى فقد سئمت هذه القصص .. سوف أجلس فى الكافتيريا الملحقة بهذه المحطة لأشرب قدحًا من القهوة .. سوف أنتظرك هنا .. »

قال لى باسمًا :

ـ « نفس الملل القديم .. أنت لن تتغير أبدًا .. »

- « يمكننى أن أملأ لك كتابًا كاملاً بحوادث رؤية رجل الجليد الغامض ورجل العث .. شاهدناه فى الساعة التاسعة مساء .. حاولت التقاط صورة له لكنه توارى . إلخ .. دعنى فى هذا المقهى وسوف أملأ لك عدة مقالات .. »

- « أحمد الله أنك لم تصر صحفيًا .. إذن لصرت صحفيًا نصابًا .. »

دخلت الكافتيريا وحدى وجلست على أحد المقاعد العالية أمام الكاونتر ..

انتظرت أن يظهر أحد .. الساقى العجوز ذو الكرش أو الساقية الملول التى تعلق مريولة .. لم يظهر أحد .. هناك جرس أمامى قرعته لأنهم يفعلون ذلك فى السينما .. لكنه لم يصدر صوتًا ..

لم يأت أحد بجرس أو من دون جرس ..

صحت بصوت عال :

- « هيييه ! »

ثم تنبهت لشىء غريب ..

لماذا يسود الظلام الكافتيريا بهذا الشكل ؟ صحيح أننا فى الظهيرة ولكن الكافتيريا فى الظل ولا تتسلل الشمس لها .. معنى هذا أن التيار الكهربى مقطوع ..

هذه حادثة نادرة جدًا فى أمريكا .. بينما فى مصر كنا نتوتر إذا عاد التيار الكهربى ..

نهضت قاصدًا المطبخ .. تطفُل وقح لكن له ما يبرره ..

هنا أدركت معلومة جديدة تضاف للظواهر الفورتية ..

من قال إن رجل العث مسالم ؟ هذه معلومة خاطئة .. إنه يهاجم الأحياء ويمزق أعناقهم ..

لقد وجدت جثتين .. ثلاث جثث هناك فى المطبخ وكان الدم يلوث كل شىء ..

نظرت للسقف فوجدت أن زجاجه مهشم .. بصعوبة استطعت أن أرى ذلك الجسم الشبيه بوطواط عملاق يتحرر من الزجاج المهشم ليحلق مبتعدًا ..

لا توجد أوهام هنا .. هذا ليس طائرًا ..

لقد كان الشهود دقيقين جدًا .. التيار الكهربى انقطع فعلاً فى لحظة ظهوره ..

هرعت إلى الباب وقلبى يتواثب فى صدرى ..

يجب أن يعرف (هارى) هذا .. يجب أن يعرف الجميع هذا ..

لكنى إذ فتحت الباب هبت لفحة من هواء ساخن فى وجهى ..

تراجعت للخلف وألقيت نظرة من النافذة ..

رأيت كابوسًا حقيقيًا ..

النار تشتعل فى محطة البنزين بأكملها وتحيط بالكافتيريا .. لقد اشتعلت النار فى تلك الشاحنة المحملة بالوقود ..

لا يمكن الخروج من الباب الرئيس ..

هنا دوى انفجار مروع فسقطت على الأرض .. وتطايرت الشظايا فى كل صوب .. وبدأ كل شىء فى الكافتيريا يشتعل ..

لقد اشتعل خزان كبير أو انفجرت الشاحنة ..

لقد صدق هذا الجزء كذلك .. معنى ظهور رجل العث أن هناك كارثة على الأبواب ..

حريق عام مهيب سوف يلتهم نصف البلدة على الأقل .. سوف تكون كارثة يؤرخون لها وتتحدث عنها الصحف طويلاً ..

المشكلة هى هل يلتهمنى أنا أيضًا أم لا ؟

ما قيمة واحد مقابل كل من سيموتون فى هذا الحادث ؟ سؤال وجيه .. لكن هذا الواحد هو أنا .. أنا الذى يعتقد ـ ككل إنسان ـ أن الكون ديكور وضع فى خلفية حياته ..

يتوقف الأمر على وجود مخرج آخر لم تحاصره النيران ..

ادعوا الله معى أن يكون هناك مدخل آخر ..

N

فى تايلاند يطلقون عليه اسم (لاى تاى) .. ويتهمون ما يدعى بـ (فى آم) أو (شبح الأرملة)(*) ..

فى اليابان هو (توك كورى) ..

فى الفلبين يطلقون عليه (باتى بات) ..

فى فيتنام اسمه (تسوب تسوانج) ..

فى العالم الغربى أطلقوا عليه اسم (مرض بروجادا brugada) ..

لكنهم تذكروا قصصًا مماثلة عن (الجاثوم) وفهموا لماذا يقوم الرجال فى الشرق الأقصى بصبغ شفاههم بأحمر الشفاه قبل النوم .. كى يحسبهم الشيطان نساء فلا يقضى عليهم ..

* * *

قابلت الدكتور (بروجادا) فى أحد مؤتمرات أمراض القلب فى مصر ..

(*) المرض حقيقى وما ذكر عنه هنا دقيق تمامًا

هذا الطبيب الأمريكي ذو الأصل الأسباني الذى قضى حياته يدرس هذه الظاهرة ، قد وصل إلى استنتاجات مهمة ..

وقف هناك فى قاعة المؤتمرات وألقى نظرة على الشريحة المعروضة ، ثم قال بصوت جهورى وبلكنة أسبانية واضحة :

ـ « يدخل الشاب تحت الأربعين فراشه وهو متمتع بكامل صحته ولياقته .. فى الصباح لا ينهض من نومه .. هذا المرض متفش فى جنوب شرق آسيا .. فى تايلاند يعتبر هو السبب الثانى لوفاة الشباب بعد حوادث المرور .. لوحظت أكثر الحالات فى البحارة الفلبينيين ، وفى اليابان يقصد الشيوخ المعبد البوذى داعين أن يموتوا بهذه الطريقة بدلاً من عذاب الشيخوخة .. »

ثم ظهرت على الشاشة صورة شاب آسيوى ميت جداً .. وقال :

ـ « هكذا يبدون فى الصباح .. فى التراث الشعبى للشرق الأقصى ، يؤمنون بأن شيطانا يتسلل ليجثم فوق صدر الفتى فيخنقه وهو نائم .. هناك من يسمعون صوت لهاث واختناق فى الليل .. هذا يذكر الغربيين بتراثهم عن الجاثوم والثقوبة .. »

الشريحة التالية كانت تظهر قلبًا يتم تشريحه :

ـ « د. (جونزالو) من البحرية الأمريكية قام بتشريح 11 جثة .. فى كل مرة يجد القلب سليما تماما .. أى أننا نتحدث عن موت فجائى فى قلب سليم تشريحيًا ووظيفيًا .. »

ثم ظهرت على الشاشة شريحة تظهر تخطيط قلب ECG ..

كانت هناك موجة شريرة الشكل .. موجة لم أرها من قبل فى أى مرجع طبى ..

قال د. (بروجادا) بلهجة انتصار :

ـ « عندما أجريت دراسة واسعة على الآسيويين تبينت هذه الموجة غريبة الشكل .. أطلقت عليها اسم (زعنفة سمكة القرش Shark's fin) .. لاحظت أن الرجال الذين لديهم هذا التخطيط مستعدون دومًا للإصابة باختلال ضربات فى الليل .. هذا هو ما قرر العلم أن يطلق عليه (مرض بروجادا) أو (علامة بروجادا) .. إنها خاصية وراثية تنتشر لدى الشباب الآسيويين .. وبهذا يمكننا أن نضع عيوننا على من يحملون هذه الموجة ، وأن نقوم بزرع جهاز لتنظيم الضربات كى يتقى اختلال الضربات أثناء النوم .. »

ثم حيانا بلهجة من يطالبنا بالتصفيق ..

بالفعل التهبت الأكف ..

لقد وجه العلم للخرافة ضربة قوية أخرى .. لا توجد شياطين ولكن توجد موجة مضطربة شريرة يسهل التنبؤ بها ..

قابلته بعد المؤتمر فصافحته وعرفته بنفسى ، وقلت :

ـ « يمكن القول إنك قضيت على أسطورة الجاثوم .. والثقوبة .. »

قال ضاحكًا :

ـ « بالفعل .. وإن كانت هـذه الموجـة غير شـائعة فى العـالم الغربى .. توشك أن تكون متلازمة آسيوية .. »

من الممتع أن تقابل أحد العلماء الحقيقيين الذين ظفروا بـأن يطلق اسمهم على مرض .. والأهم أن هذا يتم فى حياتهم ..

* * *

لقد مر عام على ذلك المؤتمر ، وأنا الآن فى عيادة د. (فكرى) راقد على فراش الفحص بينما تلك الأقطاب على صدرى ..

من جهاز تخطيط القلب يخرج ذلك الشريط الطويل ..

يتجه د. (فكرى) ليفحصه مقطبًا .. أعرف أنهم يحبون هـذه اللحظة عندما تتعلق أنظار المريـض بوجوههم .. يطيل النظر ، لكنه ينسى أننى طبيب باطنى بدورى ولن يخدعنى ..

يقول لى ضاحكًا :

ـ « فى كل مرة يخرج تخطيط القلب فى شـكل جديـد .. أتوقـع أن أرى لوحة سريالية فى المرة القادمة .. هـذا التخطيط يصلح لتدريس كل أمراض القلب عليه .. »

ـ « وهل هذا جديد ؟ »

قال وهو يشير لموجة غريبة الشكل :

ـ « هذه الموجة المتكررة لم تكن معتادة من قبل .. »

نظرت إلى ما يغنيه فرأيت المنظر المميز لزعنفة سمكة القرش ..

قلت وأنا أدقق فى الشريط :

ـ « هذه موجة (بروجادا) .. زعنفة سمكة القرش .. »

ابتسم ونظر لى وقال :

ـ « هل تعرف هذا الموضوع ؟ أنت مثقف فعلاً .. »

لكن الأمر غريب .. من المفترض أن من يحملون هذه الموجة يولدون بها .. وهم كذلك آسيويون على الأرجح .. دعك من أننى لست تحت الأربعين ..

سألته فى قلق :

ـ « هل يعنى هذا أننى مستعد للموت أثناء النوم ؟ »

ـ « لا .. هذا المرض نادر فى مصر .. »

ثم وصف لى بعض المهدئات ونصحنى بالقائمة المعتادة .. تجنب كل ما هو أسود .. الشاى الثقيل .. القهوة .. الكولا .. التبغ .. المزاج المعتل .. الأحقاد ..

قلت لنفسى إن المرض يصيب الشباب الآسيوى تحت الأربعين أثناء نومهم ليلا. .. ما احتمالات أن يفتك بى أنا الذى لم أنم ليلا منذ عقود .. أنا الذى تجاوزت الأربعين ولا أحمل إلا جينات قريتى فى محافظة الشرقية ؟

بصراحة .. الاحتمال صفر ..

* * *

فى ذلك اليوم نمت فى الثامنة صباحًا .. هذا هو الليل عندى يوم لا أكون مرتبطًا بالعمل ..

كان نومًا عميقًا مريحًا .. أعتقد أنه كان بلا أحلام ..

فقط صحوت من النوم فى الثانية بعد الظهر ..

ست ساعات من النوم الهادئ .. وأمامى ساعتان أخريان ..

كنت وحدى فى غرفة النوم خافتة الإضاءة لأن الستائر مسدلة .. وحدى فى الشقة .. لا شىء يؤلمنى سوى .. سوى ذلك الشعور الممض بأن هناك من يجثم على صدرى ..

أريد بعض الهواء .. أريد..

رفعت رأسى فوجدت ما يشبه كائنًا شيطانيًا له وجه د. (بروجادا) يجثم على صدرى .. له حجم قرد صغير لكنه ثقيل جدًا .. لا أستطيع أن أزيحه ...

هذه هلوسة .. هلوسة تداخلت فيها الرؤى كما يحدث مع الكوابيس ..

لا تخف يا رفعت .. الموت بمرض بروجادا لا يحدث إلا ليلا ..

هنا تذكرت الحقيقة المرعبة ..

إنها الثانية بعد الظهر .. الساعة 14 .. موعد مواجهتى لخطر يبدأ بحرف N ..

ربما تم التغاضى عن موضوع الليل هذا فقط من أجل القضاء على ..

لكن لا تخف .. إن بروجادا يبدأ بحرف B .. لو هلكت الآن فلن يكون بروجادا هو السبب ..

لحظة ..

ماذا يطلقون على مرض بروجادا فى المراجع الطبية ؟

يطلقون عليه اسم (متلازمة الموت بالكوابيس) Nightmare death syndrome أو NDS ..!

لقد وقعت فى الشرك يا صديقى .. إنه موعدك كى تلقى نهايتك على يد خطر يبدأ بحرف N .. فى هذه المرة قرر مرض بروجادا أن يغير طباعه من أجلك خصيصًا ..

يا له من كرم !

كنت أفكر فى هذا بينما العالم يتلاشى من حولـى . وفى مركز الرؤية تكبر بقعة من اللون الأسود ..

تكبر .. تكبر ..

تكبر .. تكبر ..

* * *

O

يقول لك د. (هانس شنايدر) وهو يتحسس إطار عويناته :

ـ « هذا هو الصندوق .. »

تنظر إلى الساعة المعلقة على الجدار فتجد أنها الثالثة بعد الظهر .. وقت مناسب جدًا لمقابلة مسخ يبدأ اسمه بحرف O لكن ما هو ؟

يقول لك وهو يخرج عدسة يتفحص بها الصندوق :

ـ « هذا هو (صندوق الأورجون) .. أنت تعرف ما قد تجده فى صندوق كهذا .. ثعبان .. عقرب .. بعض الأوراق .. ماسة الكوهينور .. هل تفتحه ؟ »

قلت له باسمًا :

ـ « ذات مرة وقعت فى مقلب مماثل مع صندوق (بندورا) .. كانت محاكاة للقصة وهو مقلب رتبه لى كائن شيطانى ما .. »

رفع حاجبيه ، وقال :

ـ « هه هه .. »

عرفت على الفور أنه غير راغب فى سماع القصة ..

****

كنا فى النمسا كما تعلم .. فى (فيينا) ..

وكنت قد تعرفت د. (شنايدر) هذا فى إحدى الجمعيات الروحية الغامضة إياها .. كان رجلاً ظريفًا واسع العلم، وليس هو النصاب الذى توحى به ظروف لقائنا .. إنه مولع بدراسة الظواهر الفورتية .. وغالبًا ما يعلن أن القصة كلها نصب ..

الظواهر الفورتية Fortean هى الظواهر غير القابلة للتفسير بطريقة علمية .. الاحتراق الذاتى .. دوائر المحاصيل .. الأطباق الطائرة .. إلخ .. سميت بهذا الاسم نسبة لمن يُدعى Charles Fort وهو صحفى أمريكى توفى عام 1932، بعد ما كرس حياته لموضوع واحد هو أن العلماء لا يفقهون شيئًا !

لقد لاحق الرجل الظواهر الغريبة فى كل مكان بدءًا بالمتحف البريطانى حتى مرتفعات التبت .. وكتب أربعة كتب شهيرة منها: (كتاب الملاعين) و(أراض جديدة) .. كانت طريقته العلمية بسيطة جدًا: ما دام هناك من رأى الظاهرة فهى حقيقية ! البحث عن دليل علمى دقيق يضيع الكثير من المعرفة من بين أيدينا !

بعد موت الرجل صار أتباعه فى كل مكان يحققون فى مواضيع مثل الرجل العث ودوار المحاصيل وطائرات الهليوكوبتر

السوداء، والساسكواش والرجال ذوى الثياب السود .. وهم مستعدون لتصديقك فى أى شىء تقوله ..

الحقيقة أن الرجل كان مزيجًا طريفًا من نصاب ومخبول، لكن إن كان قد حقق من حياته شيئًا فهو أنه ترك اسمه على كل ظاهرة غريبة ...

دعانى د. (شنايدر) إلى بيته الريفى الجميل، وهناك ـ بعد غداء رائع ـ عرض علىّ ذلك الصندوق الذى ابتاعه من مزاد علنى ... والغريب أنه ابتاعه من الولايات المتحدة برغم أن صاحبه الأصلى نمساوى (أو هكذا قيل) ..

بالنسبة له لم يكن يصدق أن له أهمية ما، لكنها طريقته المعتادة فى عدم الاحتفاظ بآراء مسبقة عن أى شىء ..

قال لى وهو يعرض علىّ الصندوق المعدنى الذى يبدو واضحًا أنه حديث الصنع، وأنه جاء للعالم فى زمن التقنيات الحديثة وصقل المعادن ..

ـ « (فلهلم رايخ) ... العالم اليهودى الذى توفى عام 1957 .. واحد من علماء قلائل زعموا أنهم أوجدوا الحياة فى المختبر ! »

أطلقت ضحكة عالية :

ـ « هنا ينتهى الأمر بالنسبة لى .. لست مستعدًا لسماع أكثر .. »

قال :

ـ « فعلاً هذا هو الجزء المجنون من كلامه .. لم يهتم بهذا الزعم أى واحد من علماء البيولوجى .. لكن الرجل زعم فعلاً عام 1935 أنه توصل إلى إحياء الفحم ، وقد توصل لكائنات وحيدة الخلية تشبه الأميبا .. »

ـ « وما هو الجزء العاقل من كلامه ؟ »

ـ « هناك كلامه عن طاقة (الأورجون orgone) .. لقد كان مهتمًا بنظريات فرويد ثم اختلف معه .. من ثم كون نظرياته الخاصة .. قال إن سبب كل مشاكل الإنسان يعود للاضطرابات العاطفية ، وإن علاج المرء يتوقف على الاستقرار العاطفى .. »

ـ « فى هذا لم يبتعد عن فرويد نفسه .. »

ـ « نعم .. لكنه قام بجمع طاقة (الانتشاء Orgasm) هذه .. الطاقة التى يشعر بها الإنسان لحظة النشوة ، وأطلق عليها اسم (أورجون) ، وزعم أنها قابلة للقياس .. وزعم أنه وضعها فى صندوق .. المفترض أن هذا الصندوق قادر على شفاء أى مرض نفسى .. »

ـ « فكرة جميلة لكن أى مصحة عقلية تعج بعباقرة مثله .. »

ابتسم د. (شنايدر) ، وقال :

ـ « على كل حال فر الرجل من النمسا عام 1939 قبل أن يحوله النازيون إلى سجق .. هرب إلى الولايات المتحدة وبدأ يمارس طريقته فى العلاج .. طبعًا ليست الأمور سائبة بهذا الشكل فى الولايات المتحدة ، وسرعان ما وجد نفسه فى السجن عام 1956 بتهمة الدجل لأن إدارة الدواء والعلاج FDA اتهمته بذلك .. ومات فى السجن بعد عام .. »

ـ « قصة مأساوية .. »

ـ « الجميل فى الأمر هو أن لدىَّ ما يؤكد أن هذا هو الصندوق الذى يحوى طاقة (أورجون) .. لقد دخل (رايخ) السجن ، واستولى على الصندوق أحد تجار العاديات ليبيعه لثرى .. وسرعان ما بيع فى مزاد علنى . ترى ماذا يوجد فيه ؟ هل هذا ممكن ؟ الطاقة التى تحرك البشر والمسئولة عن علاج كل اضطراب نفسى هنا ؟ فهل نفتحه ؟ »

قلت وأنا أتحسس المعدن الصقيل للصندوق :

ـ « لِمَ لا ؟ »

بحث عن بعض الأدوات وراح يعالج القفل المعقد الذى يغلق الصندوق .. كان هناك لسان ينزلق إلى جانب .. وكانت هناك مجموعة من البراغى ..

أخيرًا فتح الصندوق .. ومددنا عنقينا فى توجس لنرى ما فيه ..

كان فارغًا تمامًا ..

فقط كانت هناك ورقة كتب عليها بالألمانية : (طاقة أورجون) !

انفجرنا ضاحكين ..

دعابة عملية قاسية فعلاً .. خاصة بالنسبة للرجل الذى دفع مالاً من أجل هذا السخف ..

قلت له وأنا أسترخى فى مقعدى :

ـ « هذا درس قاس لكنه يعلمك الكثير .. »

ـ « ليست هذه أول مرة ! »

جلست أتأمل الحجرة .. ثم توقفت ..

على السقف أرى ذلك البرص العملاق الذى يبلغ حجم تمساح .. متى دخل وكيف ؟ هل هذا طبيعى ؟

صرخت أنادى د. (شنايدر) ، فقط لأجد أن سيارة لاندروفر كاملة تنحشر فى فمى فلا أستطيع الصراخ .. بصقت السيارة لكنها ضربت (تشى جيفارا) فى جبهته فصرخ بالأسبانية ونزف دمًا ومات ..

د. (شنايدر) كان على السقف يمشى بالمقلوب .. بدا لى هذا مضحكًا جدًا فرحت أضحك وأضحك ..

هنا رأيته يحلق طائرًا وقد تضخم ردفاه كما يحدث فى القصص المصورة لإضحاك الأطفال ، ثم ظهر (فرويد) على الباب ليخبرنا أن الغداء جاهز ..

قلت لـ (فرويد) إننا تناولنا الغداء فعلاً ..

هنا أطبق عقربا الساعة على عنقه وقطعا رأسه ..

إنها السادسة مساء .. موعد لقائى مع حرف O ..

هذا الصندوق يبدأ بحرف hddteyrvmnboiyoihhjklhkjlhk ..

لا .. بل هو ملىء بالأورجون .. من هنا جاء حرف O .. أوه .. أوه ...

هنا صرخ د. (شنايدر) :

ـ « أنت غول ! أنت لست (رفعت) .. أنت غول ! ماذا تفعل فى بيتى ؟ »

ورأيت فى يده مسدسًا يطلق منه الرصاص علىّ .. رحت أحلق فى سماء الغرفة وأنا أضحك .. لن يستطيع الظفر بى لأننى صديق (أبو العلاء المعرى) .. من يستطيع أن يقتل صديق (أبو العلاء المعرى) ؟ إنه لواء شرطة شديد الأهمية واسع النفوذ .. أنت غير نظيف يا د. (شنايدر) .. لديك تمساح على السقف .. منذ متى يعمل (فرويد) خادمًا عندك ؟

للحظة استعدت وعيى وفطنت إلى أننى أركع على أرضية الغرفة الخشبية أقاتل وأشرح وجهات نظر لا وجود لها .. وفطنت إلى أن (شنايدر) يمسك مسدسًا فعلاً وهو يحاول جاهدًا أن يصوبه علىّ ..

- « (شنايدر) .. كف عن هذا ! »

لكنه لا يسمع ..

كان (رايخ) نصابًا فيما يتعلق بخلق الحياة ، لكنه فيما عدا هذا عبقرى .. عبقرى بالتأكيد ..

بطريقة ما وفى ظروف ما تمكن هذا الرجل من جمع المادة الخام للجنون ..

لقد وضع الجنون فى هذا الصندوق وأغلقه ..

ثم جاء (شنايدر) ليفتحه !

إنه يصوب مسدسه نحوى وهذه المرة يبدو أن تصويبه تحسن ..

فليرحمنا الله جميعًا !

* * *

P

أنت تعرف هذا الطريق ..

تنظر إلى ساعة يدك فتجدها الرابعة بعد الظهر ..

الرابعة بعد الظهر .. لكن ما سبب هذا الظلام ؟ وما سر المصابيح المضاءة فى الشوارع ..

كل شىء كئيب غريب .. والضباب اللعين يجعل الرؤية شبه مستحيلة ..

لكنك تعرف هذا الشارع وتعرف هذا الجو .. بل إنك - لو شئنا الدقة - تعرف رائحة هذا الضباب ..

أنت فى (لندن) .. لا شك فى هذا .. أنت جئت لندن عشرات المرات .. يمكن القول إن هناك جزءًا بريطانيًا فى عقلك ..

لو شئنا الدقة أكثر لقلنا إنك فى شارع (سانت ماركس) فى (نورث كنزنجتون) .. هل تذكر المزحة التى كنت تتبادلها مع صديقك المصرى الذى قال إنه ضل طريقه فى العاصمة البريطانية ؟ قلت له أن يسأل الناس عن مكان (نورث كنزنجتون) .. هذا يخبره باتجاه الشمال على الأقل !

لكنك بالفعل لا تعرف إلام تتوجه ومن تقصد .. لو كان هناك هاتف قريب لاتصلت بـ (ماجى) ، وإن كانت لن تخف لنجدتك لأنها هناك فى الشمال فى (أنفرنسشاير) ..

أنت تمشى باحثًا عن هدى أو ضوء ..

فجأة ترى الكشافات ويذوب الضباب .. تثب إلى الرصيف لترى ذلك الوحش الأحمر يتقدم خارجًا من المنحنى .. الحافلة البريطانية ذات الطابقين double - decker حمراء اللون التى تميز (لندن) ..

هذا جميل .. على الأقل سوف تقودك إلى مكان ما تعرفه ..

ينفتح الباب فتصعد ..

السائق ينظر لك فى فضول .. إنه رجل أشيب يلبس نظارة سوداء وفى الخمسين من عمره ، له سحنة بريطانية جدًا .. يقول لك بتلك اللهجة المميزة للطبقة العاملة :

ـ « عصرًا سعيدًا يا سيدى .. »

ـ « عصرًا سعيدًا .. »

وتضع العملة فى آلة الصرف التى جواره ، وينغلق الباب .. تتقدم وسط الحافلة لتجلس خلفه ..

حتى هذه اللحظة أنت تتساءل عن المسخ الذى يحمل حرف P .. على الأقل هذه حافلة Bus وهذا سائق driver .. لا يوجد شىء مريب ..

تشق الحافلة طريقها فى شوارع لندن ، بينما تسأل السائق متجاهلاً التعليمات التى تطلب منك ألا تتحدث معه :

ـ « أين نحن ؟ »

يقول لك وهو ينظف الزجاج بمنشفة :

ـ « (كامبردج جاردنز) ... لقد قابلناك عند تقاطعها مع شارع (سانت ماركس) .. من حسن الحظ أنك وجدتنا .. »

ـ « وما المشكلة ؟ »

ـ « أنت تعرف موضوع الـ (بوبو باوا) .. »

هنا ملت نحوه وقبل أن تسأل عن أى شىء آخر توجه له سؤالاً :

ـ « هل يبدأ هذا الاسم بحرف P أم B ؟ »

ـ « P يا سيدى كما فى Pen .. هل سمعت عنه ؟ »

ـ « لا .. »

قال فى استمتاع وهو يدير المقود نحو اليسار :

ـ « هنا فى هذه المناطق مهاجرون أفارقة .. يحكون عن عفريت اسمه (بوبو باوا) .. يبدو أنه جاء معهم من أفريقيا .. إنه يهاجم الرجال ويعتدى عليهم ، والحقيقة أن هناك هجمات عدة هنا ، لكن الشرطة لم تجد أى دليل .. »

استرخيت فى مقعدى .. هذا هو المسخ الذى سأقابله الآن ..

لا تضيع وقتك فى الشرح يا صاحبى .. هذا الكائن لى .. إنه مخصص من أجلى ..

* * *

تحاول أن تختلس النظر للجالسين معك فى الحافلة .. لا شىء .. إنهم صامتون وأكثرهم نائم ..

تعود بنظراتك إلى ظهر السائق الجالس أمامك ..

تراه ينظر لك فى المرآة وهو يبتسم خلسة .. لابد أنه يستمتع بإفزاعك .. لكنه فجأة يتوتر ..

هناك كشافات تظهر فى المرآة ..

ـ « تبًا لكم ! »

يقولها ويضغط على دواسة البنزين .. تتسارع الحافلة أكثر .. يصحو الناس من نومهم وينظرون إلى الخلف ..

هناك دراجتان بخاريتان تطاردان الحافلة كما هو واضح .. تنظر من النافذة جوارك فترى دراجة منها تحت مستوى النظر يركبها شرطى بريطانى صارم الوجه يضع خوذة على رأسه ويتكلم فى اللاسلكى ..

تهتف به :

ـ « هؤلاء رجال شرطة .. لماذا لا تتوقف ؟ »

يقول لك وهو يدير المقود فى منحنيات بالغة الخطر :

ـ « لا تصدق كل ما تراه .. معظم الحوادث التى حكيتها لك بدأت برجال شرطة مزيفين .. »

يهتف أحد الركاب وهو رجل يلف عنقه بكوفية :

ـ « ربما كانوا رجال شرطة فعلاً .. أنت بهذا تخالف القانون .. »

يقول السائق وهو مستمر فى القيادة :

ـ « قل هذا لغيرى .. أنا أعرف كل كونستابلات لندن .. هؤلاء ليسوا منهم .. »

يميل بحدة إلى اليمين .. لا يلمس الدراجة التى بجوارى لكنه أربك سائقها مما جعله يندفع نحو الرصيف .. وهناك اصطدم بالجدار وانقلب ..

- « جميل .. جميل .. »

من جديد يقترب الكونستابل الآخر جوار نافذة السائق ..

المخيف فى الأمر أنه لا يأمر السائق بشىء .. لا يبدى غضبًا . فقط ينظر له نظرات باردة من حيث يركب دراجته البخارية ..

تهتف امرأة من الخلف :

- « أقترح أن تتوقف وتفهم .. »

- « لا .. لن يعطينا فرصة .. »

من جديد يسبق الدراجة البخارية ..

(بوبو باوا) ! اسم هذا المسخ كذلك .. وهو اسم أفريقى جدًا .. لكن غريب أمر ذلك المسخ الذى يقود دراجة بخارية ..

يبدو أن الدراجة البخارية تلحق بالحافلة ..

هذه المرة يرفع الكونستابل جهاز اللاسلكى ويتكلم فيه تحت نافذتك ، بينما الدراجة مستمرة فى المطاردة .. لهذا يصيح ولهذا تسمعه ..

إنه ينظر لك فى ثبات من وراء نظارته السوداء .. لكنه يواصل الكلام ..

ترى هل يمكن أن يتزحزح الزجاج ؟ تحاول ذلك بأناملك مرة ومرتين حتى يهبط .. الآن يتسلل البرد القارس ومعه صوت رجل الشرطة وهو يواصل الكلام :

- « نعم .. أؤكد لك أن (مايكل) أصيب .. أنا أواصل مطاردة الحافلة الشبح .. لا أعرف ما يجب عمله .. »

هنا فقط تفهم ..

الحافلة الشبح ..! .. Phantom bus ..! .. مسخ يبدأ اسمه بحرف P ...

قرأت الكثير عن هذه الحافلة التى تظهر بالضبط عند المنحنى الحاد بين تقاطع (كامبردج جاردنز) مع شارع (سانت ماركس) فى (نورث كنزنجتون) .. لقد سببت الكثير من الحوادث فى الثلاثينات حتى اضطرت بلدية (لندن) لجعل التقاطع أقل حدة ..

هذان رجلا شرطة حقيقيان إذن !

هناك شىء واحد غير حقيقى ..

هنا فقط رفعت رأسى لأجد السائق ينزع عويناته السود .. أرى بوضوح تلك الفجوتين مكان عينيه .. لا توجد عينان .. أنظر للركاب خلفى فأفهم لماذا يلتحف معظمهم بهذه الكوفيات ..

يقول السائق ضاحكًا :

- « هل صدقت كل هذه القصة السخيفة عن (بوبو باوا) .. لم يكن الهدف منها إلا التضليل ! على فكرة أنت أول راكب يصعد إلى حافلتنا فى التاريخ ! »

تنكمش فى مقعدك ..

ترتجف .. ليس بفعل البرد ..

تنظر خارج النافذة لترى الشرطى ما زال يواصل إبلاغ جهة ما :

ـ « نعم أؤكد .. أنا أقتفى أثر الحافلة الشبح .. أريد تعزيزات .. هناك ركاب وأحدهم ينظر لى من النافذة فى ثبات .. أعتقد أنه شبح آخر .. بالتأكيد هو كذلك ! »

* * *

Q

الخامسة مساء ..

هناك أكثر من طريقة لكتابة كلمة (قبالة) .. ربما تكتبها هكذا Kabbalah أو هكذا Qabbalah .. أو تبدأ بحرف C .. لكننا نتكلم عن الشىء ذاته ..

معنى الكلمة هو (من الفم إلى الأذن) واللفظة تحمل معنى (الاستقبال) عامة .. إنها تلك الطقوس السحرية ذات الطابع اليهودى ، قيل إن ..

ما هذا .. هذه مغامرة أخرى مكررة ..

الأخ (لوكيريو) يغش ..

يعتمد على أن لفظة (قبالة) قد تندرج تحت حرف الـ K أو الـ Q ..

واضح أننى سأخوض هذه الساعة الكريهة مرة أخرى إلى أن أصل إلى السادسة مساء .. ربما يجلب لى حرف الـ R بعض المرح ..

* * *

R

يقول لك د. (هانس شنايدر) وهو يتحسس إطار عويناته :

ـ « هذا هو الصندوق .. »

تنظر إلى الساعة المعلقة على الجدار فتجد أنها السادسة مساء .. وقت مناسب جدًا لمقابلة مسخ يبدأ اسمه بحرف R لكن ما هو ؟

يقول لك وهو يخرج عدسة يتفحص بها الصندوق :

ـ « هذا هو (صندوق الأورجون) .. أنت تعرف ما قد تجده فى صندوق كهذا .. ثعبان .. عقـرب .. بعض الأوراق .. ماسة الكوهينور .. هل تفتحه ؟ »

تتأمل الصندوق ثم تشعر بشىء غريب ..

هل هى حالة متقدمة من ظاهرة (ديجا فو Déjà vu) أم أنك بالفعل مررت بهذا الموقف من قبل ؟

مررت به فعلاً فى الثالثة بعد الظهر ..

هناك غش فى الأمر .. الأخ (لوكيريو) يكرر نفسه ..

ثم فطنت إلى أن صـاحب الصندوق يدعى (رايخ Reich) .. عـالم يهودى مجنون يذكرك بـ (مسمر) و(سام كولبـى) .. البعض اعتقد أن (تسلا) ينتمى لهؤلاء لكن (تسلا) كان عبقريًا فعلاً ...

هذه هى مغامرتى مـع حـرف R إذن .. نفس مغامرتى مـع حرف O من قبل ..

لا يوجد شىء خلا من الغش فى هذا العالم القاسى ..

حتى لعنات السحرة الأفريقيين !

* * *

S

منذ عرفت (لمياء) عرفت أنها تنتمى لعالم الشيطانيين إياه ..

كانت قد عادت من الولايات المتحدة ولا تسمع إلا أغانى (الديث ميتال) ، وكانت تتحدث بانبهار عن (أنطون لافى) ـ الذى كان حيًا فى ذلك الوقت ـ وهو مؤسس معبد الشيطان الذى يشبه فى ملامحه إبليس فعلاً ..

أظفار مصبوغة بالأسود .. حلية فى الأنف ..

كل هذا ليس مشكلة .. ربما هو نوع من التشبث المخبول بالموضة .. لكنها تحافظ باهتمام غير عادى على رقم 6 فى كل شىء تلبسه ..

السلسلة على صدرها تحمل رقم 616 من الذهب .. هناك وشم على معصمها برقم 616 .. وشم على أعلى كتفيها بذات الرقم ..

وهى تفتخر دومًا بأن عيد ميلادها فى السادس من يونيو .. أى أنه فى 6/6 ..

إن الرقم ستة ذو أهمية شديدة فى الثقافة البشرية .. والشعوب تتعامل معه بطرق مختلفة .. مثلاً هناك قبيلة أفريقية تطلق على رقم ستة لفظ (إفا) .. عندما يعجب الشاب بفتاة يقدم لها ست أصداف .. فترد عليه بثمان .. لأن نطق رقم ستة عندهم هو نفسه نطق كلمة (ارتباط) .. ونطق رقم ثمانية هو نفسه نطق كلمة (موافقة) ..

بالنسبة للثقافة المسيحية ـ الكاثوليكية بالذات ـ فإن رقم 666 حسب الكتاب المقدس هو (سمة الوحش) .. والثقافة الغربية تربط هذا الرقم بالشيطان .. قيل إن هذا الرقم يرمز لضد المسيح Antichrist وهو قريب من المسيخ الدجال عندنا .. أو يرمز لخادمه الذى يحمل هذا الرقم على جلده أو على شكل وشم .. (كراولى) الساحر الشيطانى الشهير كان يدلل نفسه باسم 666 ..

على أن أغلب دارسى الكتاب المقدس رأوا أن رقم 616 هو الأكثر دقة ..

* * *

كان (مصطفى) صديقى هو من جاء لى .. أخبرنى بقصة (لمياء) ابنته التى كانت فى زيارة لأخيها فى الولايات المتحدة وعادت بهذه الطباع الغريبة ..

لم يكن يفهم شيئًا .. فقط هو لاحظ أنها لم تعد تستحم .. وصارت تمضى النهار كله نائمة وتخرج ليلاً ...

هكذا قمت بزيارته ورأيتها .. كانت علامات شك كثيرة تحيط بها فعلاً ..

هكذا خرجت من عند (مصطفى) لأقابل الشخص الوحيد الذى أعرفه فى مصر الذى يمكن أن يساعدنى فى هذه الأمور ..

كان الأب (جيرار) قسًا كاثوليكيًا يقيم فى مصر منذ أربعين عامًا .. إنه بلجيكى كما يوحى الاسم ، وهو رجل مثقف متعمق فى هذه الأمور .. بالطبع هو يتحدث العربية كأهلها ..

جلسنا نشرب القهوة فى الأبرشية التى يصلى فيها ..

سألته عما أصاب تلك الفتاة .. هل هى مجرد موضة أم أن هناك ما يقلق فعلاً ؟

قال لى باسمًا :

ـ « الفارق بين الموضة والتغير الحقيقى هو علامة الوحش Mark of the beast .. لو استطعت أن تجد رقم 616 أو 666 على جلدها حقيقة ـ وليس وشمًا ـ فالأمر مخيف .. »

ثم أصلح من وضع نظارته الرفيعة على أنفه ، وأردف :

ـ « يخلط الناس بين علامة الوحش التى أحكى لك عنها ، وبين علامة الشيطان Devil's Mark أو stigmata diaboli التى هى ندبة كان صائدو الساحرات يزعمون أن الشيطان يضعها

كعلامة على من يخصونه من البشر .. والنوع الثالث من العلامات هو علامة الساحرات witch - mark التى هى نوع من البروز فى جسم الساحرة اعتقد صائدو الساحرات أن الشياطين ترضع منه .. »

بدا لى الأمر معقدًا ومرعبًا بما يكفى .. على كل حال لقد امتلأ كتاب (مطرقة الساحرات) بهراء كثير ، وبسببه هلكت نساء بريئات كثيرات ..

قال لى وقد لاحظ شرودى :

ـ « أنصحك أن تنسى الأمر .. لن تستطيع عمل شىء حتى لو كانت تحمل دزينة من العلامات .. لن تقتلها وتقول للشرطة إنك قتلت ساحرة .. »

كان محقًا .. للأسف لا أستطيع مساعدة (مصطفى) إلا بأن أقترح عليه طبيبًا نفسيًا ..

على أن القس أحضر لى نسخة من كتاب (مطرقة الساحرات) .. الكتاب الذى قرأته متفرقًا فى عدة مصادر .. هذه المرة لديه نسخة مصورة كاملة .. راق لى هذا كثيرًا ..

هذا الكتاب كتبه راهبان من الدومنيكان عام 1486 هما (كريمر) و(سبرنجر) وصار هو دستور محاكمة الساحرات وحرقهن . ويتلخص الكتاب فى أن عبدة الشيطان هم من النساء غالبًا لأنهن

أكثر هشاشة وشهوانية وحقدًا. إنهن يقتلن الأطفال وينشرن الأوبئة ويسممن الماشية ، ويركبن المكانس ليلاً ذاهبات للغابات حيث ينغمسن فى الشهوات الجنسية. قيل أيضًا إنهن يشربن دماء الأطفال غير المعمدين ويطحنّ عظامهم لاستعمالها كمساحيق سحرية. بعد هذا صدر كتاب Compendium Maleficarum الذى كتبه ماريا جواتسو عام 1620 وقد أضاف لهذه الصفات أن الساحرات يركبن فى الهواء على ظهر جدى ، ويستطعن الاختفاء عن طريق دهن أجسادهن بكريم خاص . والشيطان يحضر هذه الاجتماعات فى صورةَ بومة أو جدى مخيف .

كانت عمليات الاستنطاق قاسية حتى أن النساء المتهمات كن يعترفن فى النهاية ويحرقن ، وهكذا يبدو لمن يقرأ التاريخ أن القرون الخامس والسادس والسابع عشر كانت أعوامًا لا تنتهى من عبادة الشيطان والحرق .

* * *

السابعة مساء ..

أعرف أن موعدى مع حرف S قد جاء .. لكن ما هو ؟

هل هو مع علامة الشيطان stigmata diaboli أم مع رقم 6 الذى هو Six ؟

دق جرس الباب ففتحته لأجد أمامى (لمياء) كما توقعت ..

ـ « هل تسمح لى بالدخول ؟ »

ـ « هل لى أن أعرف السبب ؟ »

ـ « أنا فى مشكلة وأنت صديق .. ظننت هذا واضحًا .. »

هززت رأسى وتنحيت جانبًا ..

جلستْ فى الصالة ووضعت ساقًا على ساق وراحت تتأمل شقتى التى تراها لأول مرة ..

سألتها :

ـ « كيف حال بابا ؟ »

لم ترد وأشعلت لفافة تبغ ..

لقد سألتها عن أبيها فى حزم كى تتذكر أنها مجرد طفلة وأننى (عمو) .. لا أريد ألعابًا سخيفة من فضلك .. دعك من أننى مشمئز فعلاً من مظهرك الذى جعلك تتحولين من فتاة رقيقة إلى كائن أقرب للغراب ..

لولا لعنة الأخ (لوكيريو) لما سمحت لك بالدخول ، لكننى مرغم على ذلك .. هذا جزء من القبضة الحديدية التى تحرك الأحداث ..

قلت لها فى رفق :

- « (لمياء) .. لنتكلم بصراحة .. هل هناك أية علامات غريبة ظهرت فى جسدك مؤخرًا ؟ »

نظرت لى ثم ضحكت بدلال ، وقالت :

- « أية علامات يا شقى ؟ »

يا فتاح يا عليم ! لا أريد أى نوع من هذا السخف .. قلت لها فى صبر :

- « أسألك كطبيب .. هل يوجد أى وشم غريب أو وحمة تحمل رقم 666 ؟.. »

- « بالطبع لا .. »

- « ولا بروز فى أى جزء ؟ نوع من الثآليل أو الدمامل ؟ »

- « لا .. »

عرفت أنها صادقة .. بالتأكيد صادقة برغم أن الشيطانيين يعشقون الكذب ..

يمكن القول دون خطأ كبير إنها مجرد فتاة مخبولة أخرى .. وقعت فى يد الأصدقاء غير المناسبين فى المكان غير المناسب فى الزمن غير المناسب ..

- « هل تعتقدين أنك أكثر فتنة بهذه الطريقة ؟. بهذه الطباع ؟ »

- « أنا لا أعتقد أى شىء .. فقط قابلت فى الولايات المتحدة من أخبرونى بحقيقتى التى كنت أجهلها .. »

- « وما هى هذه الحقيقة ؟ »

ابتسمتْ فى غموض ...

هنا شعرت بشىء غريب ....

هل عطرها يدير رأسى ؟ هل أشعر بأننى لست على ما يرام ؟.. هل .... ؟

ونهضت أحاول أن أتوازن لكن ساقى تخلتا عنى ..

سقطت على الأرض لكنى احتفظت بوعيى ..

كنت هناك على الأرض وهى تركع جوارى .. تنفث دخان لفافة التبغ فى وجهى .. ثم قالت فى دلال :

- « أصدقائى فى الولايات رائعون .. منهم تعلمت الكثير من الأشياء .. ومنهم عرفت أننى جئت العالم كى أكون (ثقوبة) .. هل تعرف معنى الثقوبة ؟ »

نظرت لها عاجزًا عن الكلام ..

قالت وهى تنفث المزيد من الدخان فى وجهى :

ـ « هناك من يأتى العالم وهو لا يعرف أنه موسيقار .. هناك من يأتى العالم وهو لا يعرف أنه رسام موهوب .. أنا جئت العالم وعشت هذا العمر كله غير مدركة أننى (ثقوبة) .. هؤلاء جعلونى أعرف حقيقتى .. »

الثقوبة Succubus هى المعادل الأنثوى للجاثوم .. أنثى تزور الرجال فى كوابيسهم .. بالذات الرجال النائمين على ظهرهم .. تسلبهم الحياة وفى الصباح يجدونهم موتى ..

قالت هامسة :

ـ « إن دخان لفافة التبغ هو سبب ما يحدث لك .. هذا نوع من المخدرات جلبته من هناك ، وقد اعتدته فلم يعد يحدث شيئًا لى .. الآن أنت أول ضحية لى فى مصر .. لا أريد أن أبدأ حياتى بالفشل .. »

هى Succubus .. مسخ يبدأ بحرف الـ S .. ومن جديد كنت أفكر فى اتجاه خاطئ تمامًا ..

على أننى برغم كل شىء رأيت بطن ساعدها .. رأيت بوضوح وحمة يمكن أن تتبين فيها شكل 666 .. ليست وشمًا بل وحمة ..

هذا يعطينى بعض الترضية قبل موتى .. إنها تحمل علامة الوحش .. لهذا اختاروها ..

العالم يظلم من حولى ..

لم يبق منه إلا رقم 666 ..

T

من بين كل تراث السحر الذى تركه الفراعنة ، يحظى (تحوت Thoth) بنصيب الأسد لدى المهتمين بهذه الأمور ..

يجب أن نتذكر أن (كراولى) الساحر الشيطانى الأشهر قضى جل حياته يدرس سحر (تحوت) ، وأن هناك نوعًا من أوراق التاروت يمت له .. بل قيل إن أوراق التاروت نفسها من اختراعه .. وهناك طريقة لقراءة التاروت ابتكرها (كراولى) وشرحها فى كتاب شهير اسمه (كتاب تحوت : التاروت الفرعونى) ..

كانت لهذا الإله الفرعونى أهمية خاصة لأن الفراعنة اعتبروه رب الحكمة .. إله السحر عند الفراعنة الذى يتخذ شكل طائر البلشون ، أو قرد بابون يحمل البدر على رأسه ، وإليه ينسب اختراع الكتابة. كما قيل إنه ابن رع الأكبر ، وإنه وزير أوزيريس والحكم بين الناس .

سوف ترى صوره فى النقوش الفرعونية على شكل رجل برأس طائر (أبو منجل) أو على شكل قرد البابون .. هل تعرف ما هو ؟ إنه القرد الذى يشبه رأسه رأس الكلب .. زوجته ـ زوجة (تحوت) طبعًا ـ تدعى (معات) وهى امرأة تضع ريش نعام على رأسها ..

إن المنطقة حول المنيا تعد كنزًا ثريًا من كنوز الدولة الوسطى .. جبانة بنى حسن .. مدينة هرموبوليس التى تقع شمال ملوى .. وهى مركز عبادة (تحوت) ..

لاحظ أن اسم (هرموبوليس) يونانى تمامًا ومعناه (مدينة هرمس) ، فقد وجد الإغريق أن (تحوت) يشبه إلههم (هيرميس) كثيرًا لذا أطلقوا على المكان اسم (هيرموبوليس) ... لكن اسمها الفرعونى هو (خمونو) .. كانت عبادة (تحوت) تتم هناك وعلى كل حال لم يبق كثير من هذه المدينة..

فى (ملوى) أكبر حشد للآثار الخاصة بـ (تحوت) .. مقبرة (بيتوسيريس) و(هيرموبوليس) وهناك (تونة الجبل) .. كانت (تونة الجبل) فى الماضى تحد مدينة (أخيتاتين) كما كانت أيضًا جبانة مدينة (هيرموبوليس) المجاورة .. إن (هيرموبوليس) تبعد خمسة كيلومترات شمالى (ملوى) ، و(تونة الجبل) ستة كيلومترات غرب (هيرموبوليس) ..

فى (تونة الجبل) مقابر لقردة البابون وطائر (أبو منجل) .. يمكنك الآن فهم لماذا هذا القرد وهذا الطائر بالذات ..

* * *

لم يبق الكثير من مدينة (أخيتاتن) .. (أفق آتون) ..

المدينة الجميلة التى بناها (أخيناتون) ليعبد فيها إلهًا واحدًا ولتكون عاصمة العمارنة .. بعد وفاة (أخيناتون) فى ظروف غامضة دمر الكهنة هذه المدينة ، معلنين نهاية عصر التوحيد .. هكذا عاد (آمون) يسيطر على هذه البقاع .. ليس من العسير أن تعرف من هو قاتل (أخيناتون) .. إن أى شخص يحاول تقليل كميات الذهب والفضة واللحم والطيور والفجل والبصل التى يظفر بها الكهنة من المتعبدين لـ (آمون) .. أى شخص يقلل من نفوذهم المرعب هو شخص مقضى عليه بالموت ..

كنت أجوب تلك المنطقة مع د. (رمزى حبيب) خبير المصريات .. أنا المحظوظ الوحيد الذى يمكنه أن يرى تلك الآثار حول (ملوى) بصحبة خبير مصريات وليس بصحبة ترجمان يحكى القصة كما يذكرها لا كما هى .. خبير مصريات ولد هنا فعلاً ...

أعتقد أنها كانت أيامًا لا تنسى ..

لكنى بالفعل كنت أشعر برهبة .. هناك سر غامض كئيب يحيط بهذا العالم ..

فرغت من التقاط الصور فجلست على صخرة هناك ألهث ..

قال لى د. رمزى :

ـ « غدًا نمرُّ بـ (تونة الجبل) .. لن ترى الكثير لأنها خرائب .. لكنك سوف تجد تماثيل قرد البابون الشهير .. »

كان هذا هو يوم السبت .. وقد قررنا أن نمضى ليلتنا فى (ملوى) على أن نتحرك صباحًا ..

هكذا عدنا للفندق الصغير ، وتناولنا وجبة خفيفة ..

كانت قدماى تعويان ألمًا كأن فيهما قلبًا خاصًا بهما ينبض بلا انقطاع ..

قال لى د. (رمزى) وهو يبدل ثيابه بثياب نظيفة :

ـ « لن أستطيع النوم ما لم أجلس على أى مقهى وأدخن حجرين .. هل تأتى معى ؟ »

نظرت له فى دهشة .. ما زلت عاجزًا عن فهم هؤلاء الذين يدخنون الشيشة .. لو أراد المرء قتل نفسه فلماذا هذا التعقيد .. لكنه كان يدخن الشيشة كى لا يتجه إلى البديل الأسهل وهو السجائر .. لا يريد أن يجد وسيلة الانتحار متاحة أمامه فى كل وقت ..

قلت له إننى مرهق وإنه لو سقطت قنبلة هيدروجينية على الفندق فلن أتحرك ..

هكذا غادر المكان وجلست وحدى ..

مر الوقت وهو لم يعد بعد .. ساعة . ساعتان ..

فى الواقع بدأت أشعر بملل حقيقى ..

هكذا فعلت آخر شىء يمكن أن أقوم به وهو أننى ارتديت ثياب الخروج وأخذت الكاميرا ..

كان الظلام قد خيم على المدينة وأنا واقف على باب الفندق أنظر ذات اليمين وذات اليسار ..

ـ « هل تريد جولة يا أستاذ ؟ »

كان هذا فتى أسمر يقود سيارة أجرة عتيقة .. فكرت قليلاً ثم وجدت أنه لا بأس بذلك ..

ـ « هل تعرف كيف أذهب إلى (تونة الجبل) ؟ »

نظر لى فى دهشة .. ثم قال :

ـ « فى هذا الوقت ؟ لن أستطيع أن أدخل بك هناك .. الطريق وعر .. لكنى يمكن أن أقرب المسافة .. »

بدا لى أنه من المثير أن ألقى نظرة على جبانة (هيرموبوليس) هذه ، خاصة أنى لست وحدى ، وهى لا تبعد أكثر من خمسة كيلومترات .. سوف أرى ما يفترض ألا أراه إلا صباحًا .. هذا على سبيل الغش ..

ركبت جواره .. كان فتى صعيديًا ظريفًا يدعى (حميدة) ، وقد راح يثرثر بلا انقطاع ، وعرض على ألف مرة أن يأتى ليصحبنا غدًا أو يرتب لنا جولة خاصة .. اعتذرت لأن معى خبير مصريات يعرف ما يفعله .. خبير مصريات يدخن الشيشة منذ ثلاث ساعات ..

أخيرًا توقف الفتى بالسيارة قرب مجموعة من الأطلال التى غمرها الظلام ، وقال وهو يشير هناك :

ـ « هنا مقابر (هيرموبوليس) .. يمكنك أن تقوم بجولة لكن لا تبتعد .. سوف أنتظرك .. »

نظرت لساعتى فوجدت أنها الثامنة مساء .. قلت له إننى سأعود بعد ربع ساعة ..

ـ « لا تقلق يا أستاذ .. نحن صعايدة . سأنتظرك مهما طال غيابك ، وإلا فكيف ترجع فى ساعة كهذه ؟ »

هكذا ترجلت ومشيت بين تلك الأطلال ..

فعلاً لا يوجد الكثير مما يمكن رؤيته ..

لكن القمر شبه مكتمل والرؤية لا بأس بها ..

مشيت ومشيت حتى توارت السيارة لكننى كنت أعرف كيف أرجع ..

هناك مجموع من الأطلال توغلت بينها حتى وجدت أننى أطل على ساحة واسعة ..

من هؤلاء ؟

شعرت بقشعريرة ..

كان هناك عدد من الناس يقفون فى دائرة اشتعلت النار فى وسطها .. وكان عددهم لا يقل عن العشرين ..

دنوت أكثر وتواريت وراء تمثال متهدم .. إنهم من الغربيين .. رجال ونساء .. وهم يقفون كأنهم يؤدون صلاة ما ..

هذا غريب .. منظر غير متوقع فى مصر بأى حال ..

وسمعت كبيرهم يقول بالإنجليزية :

ـ « جئنا لنحييك يا (تحوت) فى سبتنا .. ونسألك أن تقودنا إلى موضع كتاب الأسرار !! »

هنا فقط تذكرت ..

لماذا اخترت هذا السبت بالذات ؟

كل ساحر فى العالم يعرف ما هو (سبت السحرة) .. Great Sabbath .. بالفعل هو احتفال مهم لدى السحرة الغربيين يقع فى اليوم التاسع عشر من شهر توت.. اليوم بالذات ..

يعتقد السحرة أن (تحوت) كتب كتاب الأسرار الذى يداريه فى مكان خفى وحل شفرة هذا الكتاب يمنح سيطرة مطلقة على الطبيعة. نقل الإغريق هذه الصفات إلى إلههم هرمز وولدت ديانة خاصة بهرمز اسمها (الهرمية Hermites) . وكان سحرة مثل كراولى يحتفظون بهذه الهرمية فى خزانتهم.

من يجد كتاب الأسرار يسيطر على الكون أو هذا هو ما يعتقدونه ..

هذا المشهد لن يسعد المختصين بالسياحة عندنا .. عدد غفير من السياح جاء إلى مصر ، لكنهم فى الحقيقة سحرة يريدون إقامة احتفالهم الشيطانى فى موعده ..

وأنا تواجدت فى المكان والزمان الخطأ ..

فقط لو استطعت التقاط صورة واحدة لهذا المشهد .. أريد دليلاً ..

معى الكاميرا .. لكنهم سيرون نور الفلاش بلا شك .. فقط لو جربت أن أضبط الكاميرا على السرعة B التى تتيح لى إطالة التعريض طالما ظل الغالق مضغوطًا ..

صورة واحدة ثم أفر من هنا إلى السيارة ..

هكذا قمت بتثبيت الكاميرا على الصخرة كى لا تهتز يدى .. وأخذت نفسًا عميقًا ..

ضغطت على الغالق ..

هنا فقط تذكرت أن الفلاش ملحق بالكاميرا اللعينة ، ولا يمكن تعطيله .. كنت أمقت تلك الكاميرات الأوتوماتيكية طيلة حياتى ..

وكنت على حق !

لقد سبحت المقبرة فى الضوء الخاطف ..

لم أنظر للوراء ورحت أثب فوق الصخور .. وأنا أسمع الضجيج من خلفى .. أسمع بلغات عدة من يقول : هاتوه ! لا تدعوه يبتعد ! أن تقاطع اجتماعًا للسحرة من تلاميذ (كراولى) .. أهم اجتماع لهم فى العام .. هذا لن يمر على خير ..

أعرف أننى لن أتمكن من الفرار فى الوقت المناسب .. أعرف أننى سأتعثر .. أعرف أننى ..

فى النهاية أنا على الأرض وسط الصخور .. يبدو أن كاحلى التوى بشدة لكن هذه ليست المشكلة .. لن يسمعنى (حميدة) من هنا مهما فعلت ..

حولى أربعة منهم بالعباءات السود .. وعلى الوجوه علامات حمراء لا أشك فى أنها رسمت بالدم ..

إنهم يحيطون بى .. أحدهم ينظر للآخرين فى رسالة صامتة . كأنه يسألهم فيتلقى إشارة بالجواب .. افعل .. لقد دنس اجتماعنا وعرف أكثر مما يجب ..

ينظر لى ..

ثم يرفع الخنجر ويهوى به ..

U

من أسخف الظواهر الفورتية Fortean التى تثير أعصابى قصص الأطباق الطائرة .. هناك عشرات القصص عن رؤية الأطباق الطائرة وقصص عن الفضائيين الذين يأتون إلى الأرض لاختطاف عينات من البشر ..

بالنسبة للعالم الغربى، وجد معهد (جالوب) أن ثلث الأمريكيين يعتقدون يقينًا أن الفضائيين قد زارونا .. هؤلاء الفضائيون رائقو المزاج يخطفون البشر، لكن بعد أن يرسموا دوائر فى المحاصيل ويمزقوا الماشية ..

ليس هذا فحسب .. إن مستوى الفضائيين الأخلاقى ليس شامخًا للأسف، لأنهم يغتصبون البشر بلا توقف .. هناك تقارير عدة عن اغتصاب البشر بوساطة كائنات فضائية ذات رءوس متضخمة ولون رمادى أو أخضر ..

تتكرر تفاصيل القصة كما يلى : فترة من النسيان ثم استعادة كل شىء تحت التنويم المغناطيسى .. الكل يحكى عن أجسام غامضة زرعها الغرباء فى أجسادهم، وكلهم يصف الغرباء بنفس الطريقة تقريبًا ..

ثمة طبيب نفسانى من علماء (هافارد) كتب كثيرًا عما سمعه من مرضاه عن قصص الاختطاف هذه، ولما كان مرضاه لا يعانون أية مشاكل نفسية (إذن لماذا هم مرضاه ؟) فقد وجد أن الحل الوحيد المريح هو أن هذه القصص حقيقية فى مجملها !

يفسر معظم العلماء الجادين هذه القصص بالرغبة الدائمة لدى البشر فى (السمو) .. الارتفاع إلى مرتبة أعلى .. إن تجارب الدنو من الموت والخروج من الجسد وتجارب الاختطاف بوساطة الغرباء تشترك فى كونها تحمل الشخص إلى (أعلى) .. طبعًا موضوع المعاشرة مع الغرباء يدخل فى نطاق الزواج من الجن فى ثقافتنا، وهى مجرد تعبير عن الكبت ويمكن تصنيفه تحت ما يسمونه (التفكير التواق wishful thinking) ..

* * *

لكنها التاسعة مساء ..

وأنا أقف على الشاطئ الخالى فى مرسى مطروح أنظر للسماء لأرى تلك الأجسام المضيئة ..

إذن أنا أواجه تجربة مع الـ UFO .. الأجسام الطائرة غير معروفة الهوية التى تؤرق الأمريكيين والعالم كله .. من الغريب أن ترى طبقًا طائرًا فى مصر .. مصر أصلا لا تقع فى النطاق الذى رسمه العلماء لهذه الحوادث .. الكويت مثلا تقع بوضوح ضمن هذا النطاق ..

التاسعة مساء موعد مواجهتى لحرف U .. فهل هو يتعلق بالأطباق الطائرة أم يتكرر الخداع المعتاد من الأخ (لوكيريو) ؟

يحلق هذا الجسم بلا انقطاع راسمًا دوائر لا تنتهى .. ثم يغيب وسط الغيوم ..

يمكننى أن أرى انعكاسه فى مياه البحر المظلمة التى تصطرع فيها الأمواج ..

من المستحيل أن يمر هذا المشهد من دون أن يراه خفر السواحل أو تسجله أجهزة الرادار وتخرج المقاتلات من أجل معرفة ما هو ..

هناك جسمان .. لو تركت العنان لنفسى لقلت إنهما يشبهان الأطباق فعلاً ..

لكن لا .. نحن لا نمزح هنا ..

أسمع صوت (ممدوح) من وراء ظهرى يقول كأنه سمع أفكارى :

ـ « أعتقد أن هذه الأشياء غير مرئية بالنسبة للرادار .. أنت تعرف تجربة الـ Degaussing البريطانية القائمة على نزع مغناطيسية الأجسام ، وبالتالى يمكن التغلب على الاكتشاف بالرادار بالنسبة لوحدات السلاح.. لو كان البشر قد وصلوا لهذا فلماذا لا يصل له هؤلاء ؟ »

كان (ممدوح) مهتمًا بالفيزياء .. إنه الشخص المناسب فعلاً لليلة كهذه ..

قلت له فى إصرار :

ـ « هناك تفسير .. أعرف هذا يقينًا .. لا أصدق هذا الهراء عن سفن الفضاء التى تشبه أطباق الشاى .. إن المجلات المصورة فى الخمسينات هى التى ألهبت خيال الناس .. هناك زوجان زعما أن الأطباق الطائرة خطفتهما وأجرت عليهما تجارب ، ثم وجد أحد العلماء ذات التفاصيل التى حكياها فى مجلة مصورة اسمها (باك روجرز) .. »

كنا منذ نصف ساعة فى فندق يطل على البحر وقد تهيأنا للخروج ..

المدينة الساحلية الجميلة شبه خالية لأننا فى أكتوبر .. لقد رحل عنها الزحام والصخب ، والآن هى تتهيأ لشتاء طويل بارد .. أما لماذا كنت هناك فتلك قصة طويلة من قصصى التى لا تنتهى .. ليس هذا وقتها على كل حال ..

فى غرفتى نظرت من الشرفة إلى البحر .. كتلة السواد الناعسة المرهقة .. فرأيت تلك الأجسام تحلق فوقه .. أجسام تتحرك بطريقة غير فيزيائية بالمرة .. طريقة لو رآها الخواجة (نيوتن) لجن جنونه وشد شعره .. طريقة لا علاقة لها

بالاحتكاك بالهواء أو قوانين القصور الذاتى أو بقاء كل جسم فى خط مستقيم بسرعة منتظمة ما لم تؤثر عليه قوة تغير حالته ..

هكذا رفعت سماعة الهاتف وطلبت (ممدوح) فى غرفته ..

ـ « اخرج للشرفة بسرعة أيها المجنون .. انظر للبحر ! »

وقد فعل لأننى سمعته يصرخ فى السماعة ..

سرعان ما كنا نركض على الشط ناظرين للسماء غير مصدقين ..

استمر العرض المبهر نحو عشر دقائق .. وقد خيل لى فى لحظة بعينها أن المدينة تقيم ألعابًا نارية لسبب ما .. ربما تحتفل بالسادس من أكتوبر .. فقط نحن فى آخر الشهر وليس أوله ..

* * *

ساد الظلام من جديد ، فتنهدت وقلت :

ـ « انتهى العرض .. »

قال (ممدوح) فى انبهار :

ـ « لم نعرف ما كان هذا .. »

ـ « لن نقدر على إثباته .. ستكون مجرد قصة حمقاء أخرى مما نسمعه كل يوم .. أعتقد أن علينا أن نحتفظ بهذا السر فى ضمائرنا .. »

واستدرنا لنعود ..

هنا خطر لى خاطر غريب ..

الرمال ليست بذات الملمس المعتاد .. هناك شىء غريب ..

رفعت عينى حيث كان الفندق فلم أره .. كان الظلام يمتد إلى ما لا نهاية ..

أين أضواء المدينة ؟

ـ « هل انقطع التيار الكهربى ؟ »

ـ « لا أظن .. الظلام ليس دامسًا .. هناك أضواء من بعيد .. »

ـ « ماذا حدث ؟ »

توقف (ممدوح) ونظر إلى البحر المظلم خلفنا .. فكر قليلاً ثم قال :

ـ « هل تريد رأيى ؟ لقد تغير كل شىء فى عشر الدقائق التى وقفنا فيها نرمق هذا المشهد .. »

ونظر إلى ساعته ، وهمس :

ـ « إنها العاشرة صباح يوم الخامس من سبتمبر ! »

ما معنى هذا ؟ كنا فى آخر أكتوبر وكانت الساعة التاسعة مساء ! .. هل عدنا بالزمن إلى الخلف ؟

قال لى وهو يبتلع ريقه :

ـ « أعتقد هذا .. بل أعتقد كذلك أن هذه ليست (مرسى مطروح) ! »

ـ « عم تتكلم ؟ »

نظر لى فى وحشية والتمعت عيناه ، وقال :

ـ « ألم تفهم بعد يا أحمق ؟ لقد تم اختطافنا فعلاً ! نحن الآن فى عالمهم ! الناس تتخيل أن الأمر يشبه ما يتم على الأرض .. تتوقف سفينة فضاء لينزل منها رجال أشداء يحملون زجاجة كلوروفورم وخرقة يضعونها على أنفك .. ثم يحملونك بالقوة إلى مركبتهم حيث يقيدونك بالحبال ! نحن نتكلم عن فيزياء مختلفة .. هذه الأطباق كانت تحلق فوق الشط بحثًا عن حمقى يصلحون ومن الواضح أننا كنا كذلك ! »

قلت فى عصبية :

ـ « كف عن التخريف ! »

ـ « الانتقال تم دون أن نشعر وبطريقة فيزيائية نجهل عنها كل شىء .. نحن الآن هناك .. بصراحة قل لى .. هل تجد أى شىء مألوفًا من حولنا ؟ »

بصراحة لا . لكنى لن أعترف بهذا ..

تركته وجريت باتجاه الفندق ـ حيث كان ـ وأنا أصيح :

ـ « مجرد انقطاع للتيار الكهربى لا أكثر .. أنت جننت فعلا ! »

لكن الرمال كانت تذوب تحت قدمى .. كأننى أمشى فوق طبق من (الجيللى) .. وأدركت بوضوح أن الأفق يتلون بلون أخضر غريب .. نظرت للبحر من خلفى فلم أر إلا اللون الأسود .. الحقيقة هى أن كل ما كان مألوفًا حولنا قد تحول إلى فراغ .. نحن فى الفراغ حقيقة لا مجازًا ...

واصلت الركض ..

ثم توقفت ..

رأيتهم هناك فى بقعة من النور تتقدم نحونا ببطء ...

لم أتبين ملامحهم .. لا أعرف من هم .. فقط أدرك أنهم هم ..

ونظرت إلى حيث كان (ممدوح) فلم أتبينه لأن بقعة من الضوء صنعها هؤلاء كانت تحيط به .. فقط سمعته يصرخ :

ـ « رفعت ..! .. لا تـ ... »

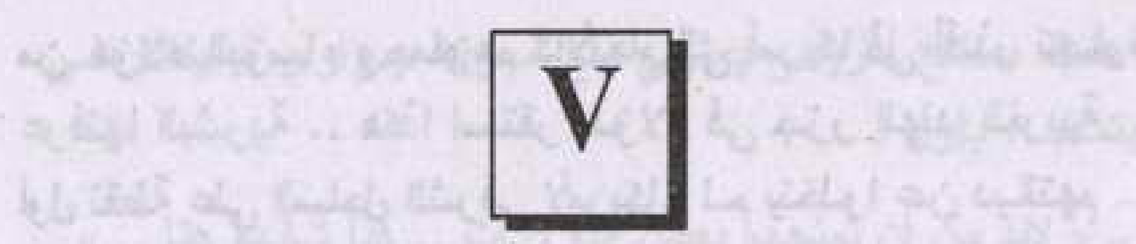
لا تـ .. ماذا ؟ لا أعرف بالضبط ..

ربما وجدت فيما بعد الوقت الكافى لفهم ما أراد قوله ..

لكن فى اللحظة الحالية يتقدم هؤلاء نحوى فوق الأرض اللزجة الشبيهة بالجيللى ..

بعد ثانيتين سأعرف الحقيقة كاملة !

* * *



العاشرة مساء ..

أنا وسط الزحام أحمل تلك الكاميرا على صدرى .. الأحراش .. حقول قصب السكر من بعيد .. المشاعل .. الطقس الحار ..

لو كانت حساباتى صحيحة ، فأنا سوف أواجه مصاص دماء Vampire .. لكن فى هذا المكان ؟ لا توجد أية لمسة قوطية هنا ..

ثم لاحظت الجو الدافئ والوجوه السمر من حولى .. هذه جزيرة استوائية . لا شك فيها .. بعبارة أدق أنا فى إحدى جزر الكاريبى .. لاحظ أننى أعرف هذا الجو جيدًا وخضت فيه أكثر من قصة .. نحن نتكلم هنا عن الفودوو .. لن يكون هناك مصاصو دماء الليلة للأسف ...

كما تعرف القصة التى حكيتها مرارًا ، هناك فى ساحل أفريقيا الغربى كانت العقيدة الودونية Vodoo تمارس على نطاق واسع خاصة فى (داهومى) و(النيجر) لدى الشعوب التى تتحدث اللغة اليوروبية . ثم جاءت تجارة العبيد .. كان أول مكان هبط فيه أولئك القادمون من أمريكا هو الساحل الشرقى لأفريقيا .. كان هذا بين القرن السابع عشر والثامن عشر ... لقد اصطادوا بعضًا

من هؤلاء البؤساء وحملوهم كالأنعام إلى أمريكا فى أقذر تجارة عرفتها البشرية .. هكذا استقر هؤلاء فى جزر الهند الغربية .. أول نقطة على الساحل الشرقى لأمريكا.. لم يتخلوا عن ديانتهم .. فقط مزجوها بالكاثوليكية ليتكون هذا الدين الغريب : الفودو .

طبعًا تتلخص عبادات هؤلاء القوم فى نوع من حفلات الزار .. إن حفلات الزار تذبح دجاجة تلطخ بها ثياب المرأة موضوع الزار والأمر يتكرر هنا .. حالة من الهستيريا العامة ثم تنتهى حالة الانجذاب بأن يصرخ أحدهم ويفقد وعيه .. نفس الشىء يحدث هنا ولكن يقال إن (اللوا) حلت بهذا الشخص ..

اللوا هى الروح الخيرة التى تسيطر على معتقداتهم هنا ..

هكذا أشق طريقى وسط الزحام .. مجرد سائح آخر يعلق الكاميرا فى عنقه بينما يتواثب الرجال والنساء فى المهرجان .. أشكر للأخ (لوكيريو) أن أتاح لى فرصة هذه السياحة التى ما كنت لأقدر على تحمل نفقاتها من دون لعناته ..

امرأة سوداء ليست فى فمها سن واحدة سليمة تثب أمامى .. تهتف بصوت عال شيئًا مثل :

ـ « أميستا مادارين .. »

فأهز رأسى موافقًا .. تكرر الكلمة عدة مرات ثم تذوب وسط الزحام ..

هناك سائح أمريكى يمشى مع أسرته جوارى .. ينظر لى ويبتسم .. يقول :

ـ « لابد من أن تمنحهم بعض الدولارات .. هذا شأنهم هنا .. »

لكنى لم أر قط من يتسول بهذه الطريقة المرعبة ..

هناك يقف السياح فى دائرة .. المشاعل فى المركز بينما يقف الأهالى حول ساحرتهم .. هناك نوعان من السحر .. النوع الذى يمارسه الساحر باليد اليسرى فقط وهو النوع الشرير من هذا السحر .. والنوع الذى يمارس باليد اليمنى وهو (اللوا) وهو شبيه بالسحر الأبيض . كاهنة الفودو اسمها (مامبو) .

كانت كاهنة شمطاء جدًا .. تذكرك كثيرًا بالأم (مارشا) صديقتى القديمة ..

أضواء الفلاش تلتمع بلا توقف .. أغلب السياح يصورون المشهد بكاميرات الفيديو ..

الساحرة تردد عبارات لا تنتهى وهى تتمايل أمامًا وخلفًا ..

تدريجيًا مع تكرار العبارات بدأ الواقفون يدخلون نوعًا من (الانجذاب) .. برزت دجاجة من مكان ما ذبحوها وراحوا يبعثرون دمها على الواقفين .. وبدأ الرقص المجنون .. الرقص المحموم . .

الرقص الذى يقصد به إخراج النزعات المكبوتة .. بعد هذا سيكون الإنهاك وسيشعر كل واحد من هؤلاء بأنه غسل همومه وآلامه .. سيقول إن هذا بفعل السحر ..

لعبة نفسية بسيطة جدًا تعرفها كل كودية زار مصرية ..

رفعت الكاميرا إلى عينى ورحت ألتقط بعض الصور ..

من المؤكد أن مغامرتى تتضمن مواجهة مع سحر الفودو لكن كيف ؟

هنا شعرت بمن يجذبنى من كتفى .. استدرت فوجدت فتاة أوروبية شقراء تنظر لى فى كياسة وتضع إصبعها على فمها .. تأمرنى بألا أحدث جلبة ..

لم أحدث جلبة يا فتاة فأنا لا أعرفك أصلاً ..

اقتادتنى خارج الزحام المجنون .. خارج الدائرة الراقصة ، وقالت لى بالفرنسية التى أفهمها بصعوبة :

ـ « أنا (ميشيل) .. »

ـ « تشرفنا .. وأنا (رفعت) .. »

عيناها الواسعتان الرماديتان تتكلمان .. تصرخان بلا صوت :

ـ « أنت فى مأزق .. أنا أؤلف كتابًا عن سحر الفودو .. وقد سمعت المرأة تناديك بعبارة (أميستا مادارين) .. معنى هذا أنك المختار للقربان فى هذا الحفل ! »

قلت لها فى حيرة :

ـ « الفودو لا يتضمن تقديم قرابين بشرية .. كل من درسوه قالوا هذا .. »

ـ « هم على الأرجح خطأ .. هذه الجزيرة تمارس تقديم القرابين البشرية فى عيد اكتمال القمر .. يجب أن تكون الضحية من خارج الجزيرة . وساحرتهم تعرف الضحية من بين الموجودين وتطلق عليها اسم (أميستا مادارين) .. حاليًا كل الجزيرة تعرف أنك المختار .. »

ـ « وهل ينوون فتح بطنى أمام كل هؤلاء السياح ؟ هذا لن ينشط السياحة كثيرًا .. »

ـ « لا .. سيطلبون منك أن تقف فى دور تمثيلى مربوطًا لعمود الأضحيات .. وسط كل المرح والصخب سيحدث خطأ مؤسف .. سوف يطير خنجر ليمزق عنقك .. كل شىء متفق عليه ، وهم يعرفون الفتى الذى سيفعل ذلك وقد اعتبروه شهيدًا منذ هذه اللحظة .. قتل خطأ لا أكثر سوف يُسجن من أجله بضعة أعوام لكنه سيصير بطلهم .. »

ابتلعت ريقى ..

ـ « وماذا أفعل ؟ »

ـ « بأى ثمن لا تقبل أن يقيدوك لهذا العمود .. »

ومدت يدها واقتادتنى بين الأشجار .. بين النخيل ..

من بعيد نسمع الصخب ودقات الطبول .. هناك بقعة نور تتوسط ساحة الجزيرة حيث الجميع هناك ، بينما نحن نركض فى الظلام والسكون مبتعدين ..

قالت لى وهى تلهث :

ـ « لا تحاول أن تعود للفندق هذه الليلة .. قلت لك إن كل الجزيرة تبحث عنك الآن .. ربما أدفع ثمن معاونتى لك لكنى لا أقبل أن أرى عملية قتلك .. »

كان هناك نهير صغير .. وفوقه بيت خشبى تقف دعاماته فى وسط الماء ، بينما هو أقرب إلى جسر يطل على هذا .. طراز الـ Patio الشهير فى الجُزُر .. هناك مشعل على الباب ..

قالت لى وهى تصعد درجات سلم :

ـ « هذا مكانى .. سوف تقضى الليلة هنا وفى الصباح تكون فى أمان ، لأن الليلة المشهودة ستكون قد انتهت .. »

فتحت لى بابًا خشبيًا فوجدت نفسى فى كوخ مريح .. هناك مشاعل بالداخل مع عدة أصنام وثنية ..

ـ « معذرة .. فأنا أهوى جمع هذه التُحف .. خذ راحتك .. »

دخلت الكوخ فجلست على الأرض .. ربما أنا أكبر أحمق فى التاريخ ، لكن يجب أن أصدقها .. أعرف أن مغامرة هذه الساعة تتعلق بالفودو .. إذن لدى كل الأسباب التى ترجح صدقها ..

ـ « سوف أعود لك بمجرد أن ينتهى الحفل .. حاول أن تنام قليلاً .. »

سوف أمضى الليلة هنا ..

هكذا مرت الساعات وأنا بين نائم ومتيقظ ..أقتل البعوض الذى اختلط بعرقى .. أنظر للمشاعل المتراقصة وأتخيل ما يحدث هناك فى ساحة الجزيرة ..

ثم سمعت تلك الحركات تعبث فى الباب فتوترت ..

رأيت الفتاة (ميشيل) تدخل لتقف فى ضوء المشاعل .. تنظر لى حيث جلست على الأرض .. تقول :

ـ « بالطبع أنت جائع لم تأكل .. أحضرت لك بعض الفاكهة .. »

وألقت جوارى على الأرض ببعض الموز وفاكهة استوائية ما لا أعرف اسمها .. سألتها باسمًا :

ـ « لم يسأل أحد عنى ؟ »

- « كان هناك جو من الارتباك .. راحوا يرددون (أميستا مادارين) ويبحثون هنا وهناك .. أعتقد أنك أفسدت عليهم ليلتهم الكبرى .. »

- « أنت التى أفسدتها لو شئت الحقيقة .. »

- « ليس بالضبط .. »

وهنا انفتح الباب .. ورأيت أمامى عشرة من هؤلاء القوم يلوحون بالخناجر والعصى .. فى مقدمتهم تلك المرأة .. (المامبو) .. تلبس الأسمال وتضحك كاشفة عن أسنان فضية قبيحة .. تلمع فى ضوء المشاعل ..

وثبت واقفا ، فقالت الفتاة (ميشيل) وهى تقضم إصبعًا من الموز :

- « أنصحك ألا تصعب الأمور على نفسك .. »

ثم التفتت لهم وقالت كلامًا كثيرًا بلغتهم فوثب عملاق أسود ليقيد يدى إلى ظهرى ، ولف حبلاً ليفيًا بطريقة جعلتنى أتأوه ألمًا ..

قلت لها :

- « إذن كنت تكذبين على .. »

قالت فى استمتاع :

- « لم أكذب .. هم فعلاً يرونك (أميستا مادارين) .. المختار للقربان .. لكنك تكون مجنونًا لو صدقت أنهم كانوا سيقتلونك فى الساحة أمام كل هؤلاء السياح .. تقديم القربان البشرى يتم بعد طقوس الحفل .. ويتم هنا فى بيت الكاهنة ! .. هذا ليس بيتى لو كنت قد لاحظت هذا .. »

قلت لها وأنا أحاول فك قيدى :

- « وما مصلحتك أنت ؟ »

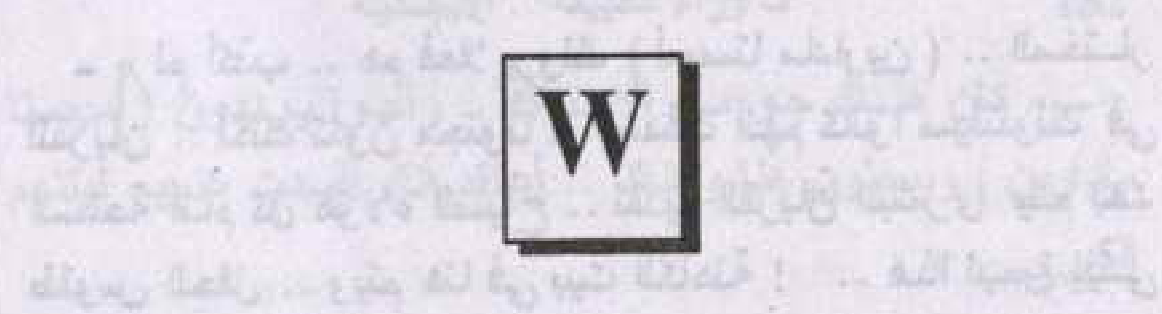
- « عندما تدرس موضوعًا ما لفترة من الأعوام فإن علاقة حميمة تنشأ بينك وبينه .. أنا أمنحهم أسرار البيض وهم يطلعوننى على أدق طقوسهم . الطقوس التى لا يمكن أن يراها رجل أبيض .. هذا تبادل منفعة لا شك فيه .. أنا أزداد علمًا وهم يخدعون من يريدون .. »

ثم أخرجت الكاميرا من جرابها ، وقالت :

- « للمرة الأولى سوف أرى مشاهد تقديم القربان البشرى .. وهذا كله بفضلك .. لن تتصور أبدًا حجم الخدمة التى قدمتها لى أيها الصديق العزيز ! »

كدت أرد لكن ضربة قوية على مؤخرة رأسى جعلت الظلام هو الذى يتولى الرد ..

* * *



المقابر ..

المشهد المألوف الكريه للشواهد التى تسبح فى ضوء القمر .. قد يوحى بالرعب أو بالسلام النهائى حسب حالتك النفسية ..

تنظر لساعة يدك فتجدها الحادية عشرة مساء ..

أنت هنا مع د. (ويليام مكدوجال) و(جون هارتفورد) .. كلاهما يدرس الظواهر الخارقة للطبيعة .. كلاهما يعرفك جيدًا وقد قابلاك يوم جئت إلى لندن ..

تذكر أنهما جاءا فى المساء بينما طقس لندن اللعين يستمطر لعناته على كل شىء .. كانا يحملان خطاب توصية من باحثة سكوتلندية تدعى (ماجى ماكيلوب) .. هكذا ! كأن الاختيار لك ! كأنك يمكن أن تقول (لا) لـ (ماجى) ..

الأول وهو د. (ويليام) هو الأكثر شيبًا ووقارًا وخبرة .. قال لك :

ـ « سمعنا عن مغامرتك الغريبة مع (رونيل السوداء) .. الساحرة التى أحرقوها فعادت للحياة ، لكننا اليوم نبحث فى موضوع آخر .. »

قال الآخر الذى هو شاب وسيم نوعًا :

ـ « الويكا .. هل تعرف معنى الاسم ؟ »

بدا علىّ الغباء .. ربما بسبب إرهاق السفر .. فقال :

ـ « الويكا Wicca مصطلح ذو جذور ألمانية معناه (الساحرة) .. إنه يرمز لنسوة ما زلن يعتنقن معتقدات عصور الوثنية .. بالنسبة لهن يعتبر العام كله عجلة لا تكف عن الدوران .. ومن هذه العجلة تخرج ثمانية أيام صيام .. »

قلت وقد تذكرت شيئًا مماثلاً :

ـ « مثل عجلة البوذيين الثمانية .. »

ـ « تقريبًا .. »

ـ « من الغريب أن يتداخل الكثير من تلك الأيام مع الأعياد المسيحية المعروفة ، لكن تفسير هذا سهل .. لقد قامت المسيحية بأخذ هذه الأعياد لنفسها كى ينسى الناس أصلها الوثنى .. لو أنك مصرٌ على الاحتفال بإله وثنى يوم الخامس من إبريل مثلاً ، فمن الأسهل أن نجعل العيد عيدًا مسيحيًا يذكرك بالإله الحق .. هذا ما حدث مع (الهالوين) الذى كان عيدًا وثنيًا للإله (ساوين) ثم حولته المسيحية إلى (ليلة جميع القديسين) .. »

تثاءبت ، وقلت :

ـ « كل هذا جميل يا سادة .. لكنى جئت من السفر حالاً ، وما زلت غير قادر على سماع محاضرات عن الأديان المقارنة.. ما المطلوب منى بالضبط ؟ »

قال د. مكدوجال وهو ينتقى كلماته :

ـ « هناك تقارير تتحدث عن اجتماعات للويكا فى مقبرة غربى لندن .. هذا يتفق مع أعيادهم ذات الدورة الثمانية .. نحن نريد أن يكون معنا شاهد يرى ما نراه ويشاركنا الرأى .. ماذا يفعلن هناك ؟ من هن ؟ هذه أسئلة مهمة فعلاً .. »

قلت له وأنا أتمطى بلا لياقة :

ـ « ما دامت د. (ماكيلوب) هى التى أوصت بى فلا مجال للاعتراض .. فقط أنا بحاجة لنوم عميق واعتبرانى موافقًا .. »

* * *

لهذا تجدنى الآن جوار شاهد القبر هذا فى المقبرة ..

معنا كاميرا عالية الحساسية .. معنا جهازا تسجيل ..

يأتى د. (ويليام مكدوجال) و(جون هارتفورد) فى الوقت المناسب .. الحادية عشرة مساء .. الساعة 23 .. أى موعدك

مع حرف W .. لقد اتضح الأمر هذه المرة .. اللقاء مع الويكا .. ساحرات شريرات بريطانيات يفعلن شيئا فى المقابر ليلا .. إن المقابر موحية على كل حال .. لو لم تلتق الساحرات هناك فأين يلتقين ؟

قال د. (ماكدوجال) :

ـ « كل مقابر لندن تشهد ظواهر غريبة بدءًا بخاطفى الجثث وانتهاء بمن يزعم أنه مصاص دماء .. »

قلت له :

ـ « ثمة شىء مخيف فى لندن .. لا أعرف ما هو .. ربما هو التراث الفكتورى الذى تركه (برام ستوكر) و(ستيفنسون) و(هـ . ج. ويلز) .. لكنك تشعر بأن كل شىء ممكن هنا .. »

تمضى الساعة .. ولا شىء يحدث ..

فقط الضباب البارد يحيط بك .. ضباب لندن له رائحة ما لا أستطيع وصفها ..

لو بدأت الأمطار تهطل فجأة لساء الأمر بما لا يقاس ..

قال (جون هارتفورد) وهو ينهض :

ـ « أعتقد أن الوقت قد حان لأقوم بجولة .. ربما كنا نقف فى المكان الخطأ .. »

وقال (ماكدوجال) :

ـ « لا أعتقد أن احتفالاتهم ستتم سرًا .. التقارير تتحدث عن صخب كبير .. »

قلت له وأنا أضم ياقة المعطف على صدرى :

ـ « سوف أنتظر هنا ساعة أخرى .. لو لم تظهر الساحرات بعد منتصف الليل فى مقبرة فلا أمل فى ظهورهن .. »

لقد قمت بما يمليه علىّ ضميرى .. انتظرت فى الظلام والبرد ساعة وسأنتظر ساعة أخرى .. لكن لو كنت تطالبنى بالبقاء حتى الشروق فأنا آسف ..

كانت هناك بقربى عصا مغروسة فى التربة اللينة فأخرجتها .. تبدو لى كوتد مدبب .. لابد أنها جزء من سور كان هنا فى الماضى ..

رحت أتسلى بقراءة اسم صاحب القبر الذى نتوارى جواره .. (مايكل موراى) .. توفى فى 8 أغسطس عام 1961 .. كلمات تأبين رقيقة .. أزهار جافة بللها المطر .. ترى كيف كان يبدو ؟ ماذا كانت أحلامه ؟ هل حلم يومًا بأن نتوارى جوار قبره فى انتظار اجتماع ساحرات ؟

هنا رأيت الظل الساقط على القبر ..

برغم الجو الغائم فالقمر يبعث ضوءًا شحيحًا من خلفى يسقط على شاهد القبر .. هكذا رأيت ذلك الظل .

استدرت بسرعة فوجدت د. (ماكدوجال) وقد صارت عيناه بلون الدم .. فمه مفتوح كاشفًا عن أنياب مستطيلة كأنياب الضوارى .. إنه واقف وقد رفع يديه فى وضع انقضاض ..

كان يقصدنى أنا !

فهمت الآن !

كان يثب فوقى .. فى اللحظة التالية وضعت الطرف المدبب للوتد بينى وبينه وعرفت ما سيحدث .. الوتد غاب حتى منتصفه فى قلبه .. لم أكن أنا من يغرسه بل هو غرسه بثقله فى صدره وأمعن فى ذلك ..

صرخ من دون صوت وتدفق الدم من الجرح ..

سقط على بعد خطوات منى وانقلب على ظهره يحاول انتزاع الوتد بيديه . لكنى وثبت فوقه وأولجت الوتد بعمق أكثر وعينانا لا تفترقان ..

فيما بعد سيكون علىَّ أن أفسر موقفى أمام شرطة لندن .. لكن لا وقت الآن إلا للبقاء حيًا ..

وحدى فى المقابر مع مصاص دماء ، لكن الوتد قد وجد طريقه لقلبه .. لن ينجو منها ..

الآن أفهم ما حدث .. يبدو أن قصة الويكا كانت مجرد مقلب لخداع ماجى وخداعى ..استدراجى وحيدًا للمقابر .. المغامرة كانت مع حرف W فعلا ، لكن هذا الحرف يرمز للفامفيرى Wamphyri أى مصاص الدماء بالرومانيـة .. إن الألمانيـة وأغلب لغات أوروبا الشرقية تحيل الـ W إلى V فى النطق .. أعتقد أن هذا هو التفسير الوحيد ..

الآن همدت حركته ..

الآن صار جثة .. سوف يعود إن لم يتم حشو فمه بالثوم وقطع عنقه ، لكنى غير متحمس لهذا كله .. فليقم به سواى .. سوف أكون غدًا فى مصحة أمراض عقلية بريطانية على الأرجح ..

سمعت زميله قادمًا من الخلف ..

استدرت له .. ثمة احتمال لا بأس به أن يكون مصاص دماء هو الآخر .. لكنى لن أستطيع انتزاع الوتد من صدر د. (ماكوجال) ..

كان قادمًا وهو يسلط الكشاف علينا .. هتف فى رعب :

ـ « ماذا حدث ؟ »

قلت وأنا ألهث :

ـ « أرجو أن تتفحص فمه وأسنانه لتوفر علىّ مجهود الشرح .. »

وابتعدت عدة خطوات ..

رأيته يجثو جوار القتيل الدامى .. يفتح فمه .. ثم شهق وهو يتحسس الأسنان الحادة كالإبر .. وهمس :

ـ « لهذا كان لا يظهر إلا فى الليل .. أعتقد أنه أراد استدراجنا معًا .. »

ـ « أو استدراجى لأكون وحدى معكما ! »

استدار لى ضاحكًا فعرفت أننى كنت محقًا ..

رأيت الأنياب الحادة والعينين الحمراوين .. هذه المرة أنا فى مأزق غاية فى السوء .. لا أتوقع ذات الحظ الحسن .. هذا الفتى أصبى وأقوى .. دعك من أنه رأى كيف هلك زميله ..

قال لى وهو يتقدم نحوى وأنا أتراجع :

ـ « لم يكن الأمر يتعلق بحرف W .. بل كان يتعلق باثنين من حرف V .. أنت تعلم أن حرف W يبدو كأنه حرفا V متلاصقان[*] .. معنى هذا أن هناك اثنين من الـ Vampire .. اثنين من مصاصى الدماء .. قضيت أنت على واحد فماذا عن الآخر ؟ »

كنت أتراجع بظهرى نحو سور المقبرة عارفًا أن لحظة التماس قادمة ..

لا مزيد من التراجع ..

(*) من ناحية الرسم فقط ، لكن الغربيين يعتبرون حرف W حرفى U متلاصقين ويسمونه Double U ..

لديه الوقت كله ..

لن تكون هناك مرة قادمة أتذكر فيها أن حرف W يبدو كأنه حرفا V متلاصقان ..

هذه من الدروس التى لا تؤتى أكلها أبدًا !

* * *

X

منتصف الليل ..

لا توجد طريقة أعرفها للتفاهم مع الصينيين إلا عن طريق (وان ـ هو ـ فانج) الدليل الذى يرافقنى فى هذه الرحلة الغريبة .. وهو رجل فى الخمسين من العمر ملتح يبدو أنه عميق الخبرة بهذه الأمور .. وكعادة الصينيين لم تترك التجاعيد / الأخاديد بقعة على جلده لم ترسم عليها رحلة عمره المضنية ..

نحن فى موضع ما من جنوب الصين .. ربما نحن قريبون من (لاوس) جدًا ..

نحن فى الجبال .. حيث التنفس عسير بسبب نقص الأكسجين، وحيث البرد يتخلل عظامك ذاتها .. من حولك الحمالون والدليل الصينى .. كبيرهم ..

لماذا أنا هنا ؟ الأمر هين .. لأن (لوكيريو) اختار لى أن أكون هنا ..

منتصف الليل .. يبدو أن لى لقاء مع كابوس صينى يبدأ بحرف X .. لكن ما هو ؟

على قدر علمى لا أعرف أى كائن يبدأ بهذا الحرف ، ما عدا المخلوق X الذى وصفته إحدى العالمات في(كينيا) .. مجرد كائن آخر من تلك الكائنات التى هى خليط من قرد وإنسان والتى تعج بها كتب الظواهر الغامضة .. شوهد فى مرتفعات كذا .. وجدت صورته على جدران كهف كذا .. التقط له المستكشف فلان صورة غير واضحة ..

هكذا .. لا تصل لحل أبدًا ..

على كل حال لا داعى للسخرية ؛ لأننى أعرف يقينًا أنها حملة استكشافية ما .. غالبًا نحن نبحث عن كائن مشابه ..

ولكن ..

لماذا يلبس الرجال جميعًا هذه الأكمام المستعارة المصنوعة من البامبو ؟

قال لى (وان ـ هو ـ فانج) بالإنجليزية التى يجيدها :

ـ « يحب (خويرين Xueren) أن يقبض على الناس من أذرعهم .. يقال إن هذا يسبب له فرحة غامرة .. والفرحة قد تبلغ به مبلغ أن يفقد وعيه للحظة ، ثم يفيق ويلتهمهم !.. هكذا تقول الأسطورة ! »

قلت فى غيظ :

ـ « مسخ يفرح بالقبض عليك لدرجة أنه يفقد وعيه .. ألا ترى هذا سخيفًا ؟ »

قال دون أن يفهم الدعابة :

ـ « هذا ما تقوله الأسطورة .. عندما يقبض على ذراع المسافر فإنه يفقد وعيه فرحًا.. هنا ينزع المسافر ذراعه من أسطوانة البامبو ويفر .. »

ثم لوح لى بأسطوانة ، وقال :

ـ « هل تلبس واحدة ؟ »

بالطبع لا ..

حسب كلامهم فإن الخويرين كائن آخر مزيج من قرد وإنسان .. تصفه الكتابات الصينية منذ 2000 عام .. يمشى على قدمين ويغطيه فراء بنى ، بينما ارتفاعه حوالى مترين .. له علامات أقدام مميزة جدًا هى التى نقتفيها الآن فوق التربة البنية ..

* * *

منتصف الليل .

ونحن جالسون حول النار فى ذلك المخيم .

(وان ـ هو ـ فانج) ليس هنا .. أعتقد أنه يقضى حاجته أو يتفقد منطقة الأشجار المحيطة بنا .. لا خوف عليه من لقاء (خويرين) فهو الخبير الحقيقى بالفعل من بين كل الأكاذيب المتناثرة حول هذا الموضوع ..

أرمق وجوه الصينيين المتغضنة العجوز من حولي.. منهم من يدخن الغليون ومنهم من يشرب الشاى شارد الذهن .. وجوه تبدو فى اللهب كأنها تشتعل ..

يتكلمون فلا أفهم ما يقال .. من السهل أن تصاب بالبارانويا فى جو كهذا .. حتى دعاباتهم يستحيل أن تفهمها وتبدو لك سمجة .. لهذا تدفن رأسك بين كتفيك وتدفن عينيك فى النيران ..

فجأة يتعالى صراخ ما من وراء المرتفعات ..

يهب الجميع على أقدامهم ويتصايحون فى دهشة ...

فجأة يبرز (وان ـ هو ـ فانج) من مكان ما .. يصيح فيهم بالصينية من ثم يحمل كل واحد منهم بندقيته ويهرع بعيدا ..

ينظر لك (وان ـ هو ـ فانج) ، ويقول :

ـ « واحد من الرجال ممزق بين الأشجار .. لا نحتاج إلى إجراء تحقيق لمعرفة من قاتله .. إن ذراعه مهشمة كأن هناك من كان يمسك بها بقوة .. »

نهضت مذعورًا ، فقال لى :

ـ « لا داعى .. الرجال سيأتون به هنا .. أعتقد أنه (شانج لى) .. »

يتوارى الرجال بعد ما وضعوا تلك الأسطوانات حول أذرعهم ..

ساد الصمت .. فقط صوت النيران المضطرمة والتوتر فى الأحشاء ..

أسأل (وان ـ هو ـ فانج) :

ـ « هل تعتقد أنه هاجمه منذ زمن ؟ »

ـ « ربما .. »

بعد قليل يعود الرجال وهم يحملون البقايا ملفوفة فى حزام أحمر فلا تعرف إن كان ملوثًا بالدم أم لا .. هذا إذن ما فعله الخويرين ..

وضعوها جوارنا فنهضت وأحضرت الكاميرا .. يجب أن أتعامل بقدر كبير من الكياسة فلربما ضايقهم أن ألتقط صورًا لجثة زميلهم ..

ربما كذلك أتمكن من تصوير طقوس وداع الميت .. هل هم بوذيون أم كونفوشيوسيون أم هم ـ ببساطة ـ ملحدون ؟

نظرت لوجه (وان ـ هو ـ فانج) المتغضن متسائلاً فهز رأسه أن افعل ..

بدأت تشغيل الكاميرا مكتفيًا بضوء اللهب الخافت المتراقص والرجال يلتفون حول الجثة .. هنا ظهر الوجه الميت ..

هذا الرجل لا يمت للحملة بصلة .. لم أره من قبل قط ..

فى اللحظة التالية مد أحد الرجال يده وانتزع قطعة كبيرة من جسد الميت وبدأ يلوكها .. وعلى الفور انقض الباقون على الجثة !

رفعت الكاميرا عن عينى لأننى لم أصدق ما رأيت عبرها .. أردت أن أرى هذا مباشرة ..

ونظرت فى رعب إلى (وان ـ هو ـ فانج) ..

قال لى وهو يبتسم :

ـ « عشاء بسيط أعددته للرجال .. لاحظ أنهم لم يتناولوا العشاء بعد ..!.. هذا الرجل كان يبحث فى المنطقة عن (خويرين) .. »

وثبت للوراء لأبتعد عنه لكنى وجدت يده تطبق على ساعدى كأنها ملزمة ..

ـ « ليس بهذه السرعة .. »

ورفع القلنسوة عن رأسه فرأيت أن رأسه مغطى بالشعر بالكامل .. معظم وجهه .. هذا ليس بشرًا .. لم أتبين هذا إلا الآن ..

قال وهو يطبق على ساعدى بقوة :

ـ « أنت لا تعرف عنا أى شىء على الإطلاق .. فقط تفاوضت مع مسئول حكومى فرتب لك هذه المجموعة من سكان الجبال .. ألم يخطر ببالك أننا عشيرة من (الخويرين) ؟ »

حاولت التملص لكن قبضته كانت قوية جدًا ، وأردف قائلاً :

ـ « لهـذا لم ير أحد (الخويرين) قط .. لأن الخرافات تحيط بهم وكل هذا الكلام الفارغ .. يبحث الناس عن قرد عملاق يشبه (المى جى) ، بينما نحن لا نختلف عن البشر كثيرًا كما ترى ، فيما عدا الشعر الذى يغطينا بالكامل ومنظر أقدامنا .. هذه الآثار هى التى جلبت لنا الكثير من الفرائس البشرية .. ذكاؤنا مثلهم إن لم نكن أذكى .. لهذا ظل سرنا خفيًا طيلة ألفى عام .. »

فى اللحظة التالية وجدت نفسى على الأرض ..

صوت القضم على بعد خطوات . الخوار ..

وجوه الحمالين الغريبة المخيفة ..

الليل ..

اللهب ..

نعم هو منتصف الليل .. لقائى مع (الخويرين) ..

ليسوا واحدًا بل عشيرة منهم .. ورئيسهم يتكلم الإنجليزية !

إن الكثير من المرح ينتظرنى ..

Z Y

لقد مر منتصف الليل وجربت الحرف رقم 24 فى الساعة رقم 24 ..

الآن لا توجد ساعة خامسة وعشرون .. هل ستدور الدورة من جديد مع مسخ يبدأ اسمه بحرف A ؟

أعتقد أن هذا صحيح .. لكن هذا يعنى تناقضًا لا بأس به مع منطق اللغة .. يجب أن أواجه وحشًا يبدأ بحرف Y .. لو واجهته لكان معنى هذا أن اليوم 25 ساعة ..

اللغة تلتهم نفسها ..

لكن لا أعتقد أن (لوكيريو) لم يفكر فى هذا ...

لست متأكدًا لكنى أعتقد أن الباب الخلفى للفرار يبدأ من هنا ..

لا أصدق أننى سأجرب هذا كله مرة أخرى ..

من الواضح طبعًا أنه لن يستعمل ذات المسوخ .. سوف يستعمل مسوخا أخرى تنم عن تنوع لغوى ممتاز .. ربما فى الواحدة صباحًا أقابل (أبراكساس) وفى الثانية أقابل (بهيموت) أو (بعلزبول) .. واضح أنه من الممكن أن تتم مغامرتى هذه بذات القواعد على مدى ألف يوم آخر ..

لقد جربت الموت بكل تفاصيله فى 24 مغامرة تقريبًا ـ ما عدا مرات الغش التى قام بها ـ لكنى لم أمت .. بالفعل اشتهيت الموت فى كل مرة ولم يأت ..

سوف يتكرر هذا حتى يدفعنى إلى الجنون وربما الانتحار ..

يجب أن أفكر بعمق .. يجب ..

* * *

« قال إنك حاولت خطف صنمهم وأهنته بالكاميرا .. لذا سيقوم هو بخطف روحك .. يقول إنك ستتعذب بعدد ساعات اليوم فى دهاليز الكوابيس ومع الأبجدية .. وأنك ستشتهى الموت فلا تناله .. »

* * *

هكذا قال الساحر ..

هل أستطيع أن أحاول استمالته ؟ ربما لو سافرت إلى كينيا من جديد و..

حل سخيف طبعًا .. لن أستطيع عمل شىء وحدى .. دعك من أن ذهابى بقدمى إلى أراضى التوركانا هو انتحار .. ربما كان من الأسهل أن أفعل هذا هنا والآن فهذا يوفر النفقات والجهد .. الكاميرا !

يجب أن أقوم بتحميض الفيلم .. كنت أكره هذا لكنى أعتقد أنه سيلقى ضوءًا على الموقف ..

هل يمكن أن أجد ستوديو تصوير فى ساعة كهذه ؟

ربما لو جبت المدينة بسيارتى .. من حسن الحظ أن آلات الطبع الفورى كانت قد دخلت مصر فى هذا الوقت .. استلم فيلمك بعد ساعة .. هذا يجعل الأمور ممكنة ..

هكذا انطلقت جريًا لأخرج سيارتى من المرآب فى هذه الساعة المتأخرة من الليل أو المبكرة من صباح غد ..

رحت أجوب الشوارع وعيناى تبحثان فى كل صوب ..

هناك كان ذلك الستوديو .. عرفته من أضوائه المبهرة وإعلانات الأفلام الخام الموضوعة أمام واجهته .. طبعًا .. ستوديوهات التصوير تسهر طويلاً لارتباطها بحفلات الزفاف .. كيف فاتنى هذا ؟

اندفعت إلى الرجل الجالس خلف الكاونتر والذى بدا عليه الملل ، لأقول له متوسلاً إننى أرغب فى أن أطبع هذا الفيلم الآن ..

نظر لى فى دهشة وأبدى اعتذارًا .. ربما يمكن أن يعيده لى غدًا .. لكنى أخرجت رزمة مال ووضعتها أمامه .. بدا له إننى يائس أو مجنون ..

ـ « ليكن .. انتظر ربع ساعة .. »

هكذا نهض ودخل غرفة جانبية ليبدأ تشغيل آلة الطباعة ..

جلست متوترًا أنتظر والكاميرا الفارغة فى يدى ..

ما الذى أتوقع أن تثبته لى الصور ؟ لا أعرف .. لكنه نوع من الحدس الداخلى .. علىّ أن أستغل فترة الهدنة القصيرة هذه ..

بعد وقت طال عاد لى حاملاً مظروفًا مكتنزًا ، وقال لى :

ـ « هل هذه الصور فى أفريقيا ؟ جميلة . جميلة .. »

قلت مصححًا فى إرهاق :

ـ « لا تنس أن أية صورة تأتيك هنا إنما التقطت فى أفريقيا ! »

ذات الخطأ الذى نكرره عندما يقول المرء : سأذهب لمصر ! الحقيقة أنه فى مصر فعلاً.. ما يعنيه هو القاهرة ..

ورحت أقلّب الصور بسرعة .. كلها صور من ذلك المؤتمر اللعين .. صور لمحميات كينيا .. ثم ..

صورة الصنم الذى وضع قبعة على رأسه ..

بعدها فوجئت بصورة الساحر الأفريقى المخيف يقف بينى وبين الصنم !

لقد كان جهاز التوقيت مبرمجًا لالتقاط صورتين .. وعندما داهمنى الساحر وأفزعنى التقطت له الكاميرا صورة ثانية ..

إن هذا قد يفتح الطريق لحل ثورى للمشكلة ..

« قال إنك حاولت خطف صنمهم وأهنته بالكاميرا .. لذا سيقوم هو بخطف روحك"

« يقول إنك ستتعذب بعدد ساعات اليوم فى دهاليز الكوابيس ومع الأبجدية .. وأنك ستشتهى الموت فلا تناله .. »

خرجت من المحل ووقفت على الرصيف المظلم ..

هناك صوت دبيب .. دبيب يهز الشارع هزًا ....

رفعت عينى لأنظر إلى بقعة الظل الكائنة فى آخر الشارع ..

عرفت على الفور كنه هذا الذى يقترب ..

يقلب السيارات .. يهشم واجهات المنازل .. يزأر .. ينظر لأعلى .. يضرب صدره .. يتقدم .. لولا أن المدينة شبه خالية لأثار هلعًا لا يوصف ..

إنه رجل الثلوج .. الياتى Yati ..

هنا فى القاهرة .. هل يبدو هذا غريبًا ؟ ومتى رأيت شيئًا غير غريب فى هذا كله ؟؟

لقد بدأت القصة التالية .. القصة التى يبدأ خطرها بحرف Y ..

من الواضح أننى سأموت على يد الياتى .. بعد هذا ربما أواجه هجومًا من الزومبى الذين يمشون يترنحون فى شوارع الدقى .. وبعدها يكون الوقت قد جاء للمغامرة مع حرف C .. فحرف D .. إلخ ..

لم يجد (لوكيريو) حلاً سوى هذا لتلافى مشكلة عدم تطابق الأبجدية مع ساعات اليوم ..

كان الشىء يقترب منى ..

لم تتضح ملامحه بعد لكنى أتوقع كيف ستكون ..

فى هدوء مددت يدى إلى الصور وأخرجت صورة الصنم وصورة الساحر ..

أشعلت القداحة ووضعتها تحت الصورتين ..

اللهب يتعالى ..

إن لوكيريو كان يؤمن أن الكاميرا تسرق الأرواح .. ربما عرف أن صورته معى .. ربما لم يعرف .. فى جميع الأحوال هو سجين عندى بمنطقه وقد قررت أن أحرق الصورة ..

بهذا أقضى عليه أو أحرره .. لا أعرف بالضبط ..

وصحت من بين أسنانى :

ـ « لوكيريو أيها النصاب العجوز .. أنا أطلق سراحك .. فأطلق سراحى .. »

الصورة تحترق .. أرى وجهه القبيح يتلوى كأنه يحترق بالفعل ..

ذلك الشىء ما زال يقترب ..

النار تتعالى ..

إنه يقترب ..

الصورة تتجعد وتتفحم ..

إنه يزأر ..

ثم فجأة ساد الصمت ..

لم يعد هنالك سواى وسوى الرماد الساخن يحرق أناملى .. وسوى الرصيف الخالى وسوى الظلام وسوى الأضواء المنبعثة من الستوديو السهران .. وسوى صاحبه وهو يهرع للخارج مذعورًا ليسألنى عن سبب هذه الضوضاء ..

قلت له :

ـ « لا شىء .. لص حاول أن يسلبنى مالى لكنه اختفى عندما سمع صوتك .. »

نظر للصورة المتفحِّمة فى يدى ، وهتف :

ـ « لماذا أحرقتها يا سيدى ؟.. ألم ترق لك ؟ »

ـ « بل هى متقنة أكثر من اللازم .. ومن عادتى أن أتخلص من الصور المتقنة لأنها تخيفنى .. أشعر بأنها تحبس روح الناس فيها .. »

وابتعدت دون كلمة أخرى متجهًا إلى سيارتى ..

أدرت المحرك وتنفست الصعداء ...

لو لم أحمض هذا الفيلم كما اعتزمت ، لما استطعت الخلاص من هذه اللعنة ...

أعتقد ـ وأرجو أن أكون على حق ـ أن هذه هى نهاية الأبجدية ..

ارقد فى سلام أيها اللعين (لوكيريو) ..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

تمت بحمد الله

روايات مصرية للجيب

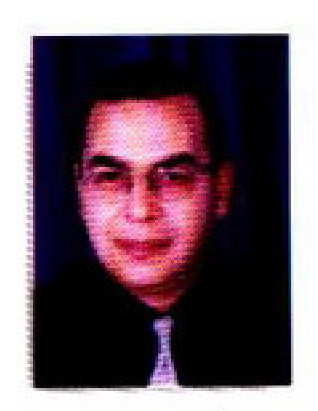
ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط الغموض والإثارة

الأبجديّة

الأبجدية قد تكون لعبة ، وقد تكون لعنة حسب موقعك من الحياة .. ما يفعله القط مع الفأر هو نوع من التسلية الممتعة بالنسبة للقط ، بينما هو قمة السادية المتوحشة بالنسبة للفأر .. فقط يعتمد الأمر على ما إذا كنت قطًّا أم فأرًا .. الأبجدية قد تكون كابوسًا ، وقد تكون باقة مسلية من القصص القصيرة .. الأبجدية هي لعبة بالساعات والحروف .. قد تمتعك وقد تثير جنونك ، لكنها تستحق الاهتمام حتمًا ، خاصة إذا ما كان بطلها العجوز

(رفعت إسماعيل) ..



د. أحمد خالد توفيق

الثمن فى مصر 400

وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم



